ليال مصرية

الطاغوت والرجال

رواية

فخرى فايد

إلى أبناء مصر ...
أبنائى : محمد وممدوح ومنة الله

الليلة الأولى

شعور سيطر عليهم هو شعور
فئران حوصرت داخل مصيدة
والقط بالخارج ينظر ..

-١-

مصيدة الفئران

الجثمان الضخم ممدد .. متورم .
العيون مفتوحة عن آخرها بالخيل .
الفم تدلى منه اللسان وقد وقع صريع عضات النواجز .
لكن أن يكون الجثمان جثمانه ؟
أن تكون العيون عيونه ؟؟
واللسان الذى طالما قال وقال . لسانه ؟
محال ..
هو بديل ..
شبيه له ..
وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ..
يخلق من الشبه أربعين .
وهكذا نكون ضحايا اللعبة .
ضيعتنا كلمات المجنون .
جننا مثله .
اندفعنا ننفذ الخطة ..
كما اعتدنا ..
وعودنا ..
يرسم الخطة ونحن نتحرك فى إطارها .
ويقال إنها إرادتنا ..
وإنها أفعالنا ..
وهو فى الواقع الفكر والفعل ، وما نحن إلا رد الفعل ..
خيال ظل ..
مشخصاتية فى تياترو ..
وهكذا دفعنا إلى ما نحن فيه ..
طرحوا أمام العقل الذاهب الكلمات .

مضغت أفواههم كلمة الموت .
لقنوه أن سيد البلد وعمدتها   مات .
بلا انفعال دار فى البلد يردد : الطاغوت .. مات .
كالببغاء يقول ..
وتغلبنا العادة ..
نندفع لنستفسر ونؤاجر ..
لكن أن يموت الطاغوت .
محال ..
بعد كل هذا العمر .. لا يموت .
هو أكيد يرقبنا من خلف باب .
يتسمع من شباك .
وألف .. ألف عين من عيون خفرائه تحفر فى الذاكرة ملامح الوجوه .
ألف أذن وأذن من آذان المشايخ تسجل بالسمع الكلمات .
وتتكشف الأمور ..
ويعرفون من هو العدو .. ومن يكون الصديق ..
.. لكن أن يموت الطاغوت ..
فهذا محال ..
محال .
****

......انتفضت الأجساد بالهلع .. تخبطت فى رجفات محمومة .. شعور سيطر عليهم هو شعور فئران حوصرت داخل مصيدة والقط بالخارج ينتظر ..

****

.. الصبر طال .
.. الليل أقبل .
.. والزمن ميت بلا أحداث .
.. ممطوطة أنت يا لحظات القلق .
.. طويل أنت يا ليل المظلومين .

****

.. الليل جثم فوق " ميت جابر" .
.. ليل القرية كالقبر .
.. الحيطان امتصت بداخلها الحياة .
.. النساء فى الدور بلغت قلوبهن الحناجر ، فالرجال دخلوا منذ نسمات الغروب دوار الطاغوت ولم يخرجوا منه بعد ..
.. فاض بهن الوجد . تقافزن يعتلين الأسطح . وكانت الصرخة واحدة :
الليل جاء .. وما جاء الرجال .

****

احتوى الطاغوت رجال الجوابرة.
هو يحتويهم منذ كان ..
لكنه ـ هذه المرة ـ يحتويهم احتواء النهاية .
كرجال عائلة الحقانية .
لنصبح بلا رجال .
الطاغوت وخفره رجالنا .
شيوخ البلد هم أيضا رجالنا .
متعة أن يكون الطاغوت رجلى .
اخرسى .
هذا لن يكون .
محال أن نتمرغ بين أحضان الخفر .
محال أن يعود عصر الجوارى .
أو عهد الحريم .
يا لضيعة نسائكم يا جوابره .
كانت مشورة سوداء .
وقلة عقل من الرجال .
أن ينساقوا وراء مجنون .
أن يذهبوا للهلاك بأرجلهم .
دوار الطاغوت ما دخلوه يوما .
دخله فقط الحقانية وما خرجوا .
يا ويلتى .
يا ويلتنا .
بعد أن كان العذاب لنساء الحقانية .
امتصت قلوبنا العذاب .
وياله من عذاب .
لن يبقى فيك يا " ميت جابر" امرأة إلا وستبيت وقد نبت فى أحضانها شوك البعاد ..
والسهاد .
والوحدة مرة .
إلا العاهرة .
حبيبة .
حبيبة المجنون .
بل مطية كل الرجال .
اتقين الله يا جوابريات فأنتن فى محنة .
لقد أقسم زوجى أن حبيبة لم تمتهن إلا رغم إرادتها .
زوجى أكد أنها ما دنست من رجل إلا بعد أن يضربها حتى يفقدها الوعى ..
فلا تستطيع له درءا .
اتقين الله ..
فمصيبتكن تكاد تكون من مصيبتها قريبة .
وحالنا يكاد يمسى بحالها شبيها .
يا رب لا تحكم علينا .
دعونا من هذه السيرة .
فكرن فى الرجال .
فغيابهم لا يبشر بخير .

ولا مكان لرثاء.
لابد أن نحول بين ما سيكون وأن يكون .
نذهب للطاغوت .
ندخل الدوار .
فإذا كان الحكم على رجالنا بالهلاك .
فليكن الموت بنا رحيما .
لنقف خارج أبواب الدوار .
وننادى بأقصى ما تستطيع حناجرنا .
يا رجالنا .
يا رجالنا .
يا جوابرة .
يا جوابرة .
تعالوا لنسائكم .
تعالوا لنسائكم ..
اخرجوا لعيالكم ..
اخرجوا لعيالكم .
فإن خرج الرجال ..
مشينا معا إلى دورنا .
وإذا خرج الطاغوت ..
صحنا به ..
لقد أخذت الرجال يا طاغوت .
فلماذا تبقى علينا ؟
لماذا تبقى علينا ؟
خذنا لنموت ..
خذنا لنموت .

****

.. رغم كل ما قيل .
.. لسم يفتح باب .
.. ولم تتحرك امرأة من فوق سطح دارها .
.. الفكرة الشيطانية نبتت فى رؤوسهن جميعا ..
: أن تكون بيننا عشيقة خفير ..
: أو عميلة لشيخ من مشايخ البلد ..
: تفيض وتبوح .
: تسجل القول والفعل .
: شلت منهن الحركة . أصبحن كفأرات وقعت فى مصيدة الرعب ، كل واحدة منهن جمدت فى مكانها تحاذر أن تصدر عنها حركة حتى لا تفسرها الأخريات على أنها تعتزم الخروج من الدار . فتكون الطامة . وتتحرك الباقيات . ويقع المحظــور : وأتصدر أنا قائمة المتمردات ..

****

.. جمود الرعب طال ..
.. الأرجل تعبت من الانتظار .
.. خرجت الصرخة من أفواههن آهة ممطوطة تفتعل الاتزان :
لننزل فننام ، فليس أأمن من الطاغوت على الرجال .
.. الاطمئنان على طرف اللسان .
.. والرعب فى الأعماق يهد الكيان .

****

احتضنت كل امرأة آهتها وتركن الأسطح . تدلين داخل الدور . أسرعن إلى حيث المنام . خيم شبح الطاغوت يرقب ويتلصص . أطبقن الجفون بقوة على دموع حبيسة يجاهدن .. ويجاهدن فى أن يحلن بينها وأن تنحدر .
.....لكن النسيج الذى تلوى بالقهر يخترق حيطان الدور .. أكثر أن نساء " ميت جابر " قد حفاهن النوم .

****

وبعد ..
ما العمل ؟
المصيدة ووقعنا بداخلها ..
لكن لابد من حل ..
اخفض صوتك ..
أى حل يا جوابرة ؟
لا .. لاشىء..
فليس أمتع من أن نقضى الليل فى حضرة جثمان سيدنا ..
عمدتنا الكريم ..
هذه فرصة كى نتبرك .
أكيد سيبنى له مشايخ البلد مقاما .
بالطبع .
ولماذا مشايخ البلد ؟
لماذا لا نبنه نحن ؟
العين لا تعلوا الحاجب .
نستأذنهم ..
طبعا نستأذنهم .
نستقطع من قوتنا ..
ومن كسوة عيالنا ..
ونبنى المقام .
وحتما سيقدر المشايخ شعورنا ويوافقون .
محظوظ من ستتاح له الزيارة .
لابد وأن يوضع على باب المقام ديدبان .
وأن تفرض الرسوم على الزوار ..
هذا إذا كان سيدنا قد غدر بحق ..
وهو محال ..

فأمثاله مباركون ..
لا يموتون ..
مدد يا سيدى العمدة ..
مدد ..
لك طول العمر والمدد .

****

.. الليل صامت كئيب .
.. المجنون وحده يطوف فى الليل .
.. يحوم حول دوار الطاغوت . ينظر من فتحات الشبابيك .
.. تطالعه وقفة فئران الجوابرة وقد سقطت صريعة رعبها . الرؤوس منكسة . الحزن مفتعل بعمق تقطيبة الجبين . الأيدى منعقدة فى مذلة وانكسار ..
.. المجنون يضحك ويجرى ضاربا الأرض برجليه . مقلدا صوت الطاغوت وقد امتطى صهوة جواده الأسود :
شى . بالأمر .. شـ ..ى .

****

الليلة تذكرنى بليلة أن هزمنا الشغامة ..
ضربوا رجالنا ..
طردوهم من الأرض وحرثوها بزرعها ..
نفس الجو الثقيل الخانق ..
ليلتها أغلقنا الأبواب ورحنا ننوح ..
قلنا انه ذنب الحقانية ..
بل قولى إنها مثل ليلة لم الحقانية ..
كانت ليلة شتاء ولا صيف ..
لكنها لا تترك الذاكرة ..
نواح نسائهم مازال عالقا بطبلة أذنى ..
ولكنهن كن أشجع منا ..
على الأقل نوحن ..
اجتمعن وصحن ..
لكنها كانت ليلة شؤم ..
وما أكثرها ليالى الغم والهم ..
تعقلى فى كلامك يا أم العيال ..
للحيطان آذان ..
لقد تسللنا من فوق أسطح دورنا ..
تعرضنا لخطر السقوط فى الظلام ..
جئنا إليك لكى تخففى عنا ..
لا لكى تزيدى من كربنا ..
وتجعلى الخطر يحيق بنا ..
فالرجال بعد لم يرجعوا ..
وللطاغوت فى كل دار أذن تسمع ..
وعين ترى ..

ويا لهول الجزار إذا ما اشتم رائحة تذمر ..
لن يعود الرجال ..
ولن تكون هناك دور ..
فالجزاء سيشمل القريب والبعيد ..
فيلعن القريب القرابة التى جعلت منه قريبا ..
ويلعن النسيب الزيجة التى جعلت منه نسيبا .

****

.. الليل جاثم فوق " ميت جابر " .
.. ليل خامل ثقيل .
.. لا قمر .
.. لا هلال .
.. وسط الظلمة يحوم المجنون . يلف . يدور . يجرى . يقف . يندفع قاطعا اتصال خيوط الظلام . صاح بغتة كالخفر :

ـ من هناك . اسمع همسا سيبلغ العمدة . ناموا يا كلاب . ناموا يا نساء بلا طرح .

.. انفجرت الكلمات فى عقله . فتت الشريط الذى تحجر . دار الشريط معكوسا : العذاب . الزنزانة . الجلاد : الجلاد يصرخ بذات الكلمات .
انتابه الهياج . اندفع إلى باب الدوار يدقه بعنف كراهيته لصاحبه : صرخ دون أن يدرى خرج صوته كصوت الطاغوت :

ـ اخرجوا يا كلاب. اخرجوا يا نساء بلا طرح .

****

تخاذلت سيقان فئران الجوابرة . لم تعد قادرة على تحمل ثقل الأجساد . لكن الصرخة تتكرر آمرة . قاسية . صارمة . والصوت صوت الطاغوت :

ـ أخرجوا يا كلاب . يا نساء بلا طرح ..

تدافع الجوابرة خارجين من الدوار فى فرار غير منظم . العيون تحاول اختراق الظلام برعبها فلا تستطيع . تصطدم الأجساد بالحيطان . تسقط . لكن الصرخة . والأمر الواضح . يدفعان الرعب ليحرك الأوصال . فيواصل من سقط هروبه زاحفا على أربع ثم ينتبه إلى بطء حركته . والى أنه يتخلف . وقد توله يد خفير . يضيع . ينتفض واقفا . بكل قواه يجرى . يشق الظلمة . إلى أن يرتطم بباب داره فيدفعه بعنف ليدخل ويدفعه بعنف أشد لكى يوصده . وهو لايجرؤ على أن ينظر خلفه . غير مصدق أنه قد أدركته النجاة . ولو إلى حين . فمن يدرى عن ماذا سيتكشف النهار ؟ .. هذا إذا كان هناك نهار !!!!

- ٢ -

هذا هو كتاب الأحكام وهذه هى المادة
مذيلة بأختام العمدة

كتاب الأحكام

.. المجنون مازال يصرخ .. كلما طنت الكلمات فى عقله يصرخ .. صراخه لا ينجيه .. مطاردة شريط الذكريات تلح .. تحطم البلاهة وخمول العقل ..
.. يضرب رأسه بالحائط لا يريد أن يستعيد ما كان .. لقد استرا .. لسكن الكلمات تضرب ذاكرته بإصرار . بعنف . وتصرخ هى أيضا :
أنت حقانى .. أنت كلب .
ألا تخشون الله ..
الله بجانبك سجين زنزانة ..
الله مطلق لا يسجن .. أنتم السجناء داخل جيفكم .
اسكت يا كلب .
سجناء غرور وهم دنياكم .
سليط اللسان . حطموا أسنانه .
اللكمة تسقط فوق وجهه . الأشباح السود تتدافع من حوله . ركلات . لكمات تؤلم جسده .. لكن الألم يتمدد . يسرى كالخدر اللذيذ :
الحق سيقال والله أكبر ..

****

لماذا تقبضون على ؟
إسمك موجود بكشوف الحقانية .
وما يفيدكم منه ؟
أنت إذن حقانى .
لأن الق إرادة الله .
كلامك يدل على أنك خطير.
من يتكلم عن الحق خطير؟
تبشر بثورة . تدعو للتمرد .
العمدة يذكر الحق فى أحاديثه كثيرا .
هذا للإستهلاك . ثم هل تريد أن تشبه بسيدنا ؟
هو حاكم البلد ونحن محكوميها . وعلينا واجب الطاعة .
إذن أأنتم تطيعونه ؟
طالما لا تتعارض طاعة الحاكم مع طاعة الله .
ألم أقل لك أنك خطير .

أيقظتمونى من نومى وقذفتم بى داخل سيارة وانتهى بى الأمر الى السجن .
حاول أحدكم قتل سيدنا .
وهل يؤخذ الكل بجريرة الفرد ؟
هذه أوامر سيدنا .
سلطتم أنوارا قوية على عينى وصرختم فى : أعترف .
لابد وأن تعترف .
ضربنى خفير بحذائه فى بطنى .
اتعترف .
طردت معدتى مابداخلها وصحت به : أخى لماذا تؤذنى وأنا لم أؤذك . أنت أخى فى الله .
تريد أن تحتويه .
أكفهر وجهه وصرخ بى وهو يعدل انحناءتى بضربة أشد أخوك أنت يادودة الأرض
أنتم فعلا دود الأرض .
كلنا دود الأرض ، بل دود الأرض أنقى منا . نحن سمك الأرض وقد أصبح هذا حالنا
تتفلسف . أأنت أحد زعمائهم .
زعماء من ؟؟
الحقانية .
الحقانية ليس لهم سوى زعيم واحد .
من هو . قل . انطق اسمه . سنفرج عنك إذا قلت لنا اسمه ثلاثيا . سنكافئك ونجعلك أحد رجالنا إذا دللتنا على مكان اقامته .
هو الله .
تسخر منا يا ابن الكلاب .
بل هو الحق .
ما من حقانى إلا وجررناه من أنفه إلى هنا . وحتما سنعرف من هو الزعيم .
سمعت أن بينهم نساء .
وأطفالا .. أنتم ملاعين . الموت راحة لنا منكم .. لكن لن تنالوه . انتظر .
تقول سمعت . ممن سمعت . فى السجن وتسمع . لكم عملاء فى السجن . حالا يجرى تحقيق .
لابد وأن يعرف من هو العميل . انطق يا سجين . من الذى يحمل لك أسرارنا . أضربوه حتى الموت إن لم ينطق باسم عميلهم فى السجن .

****

يا أخى المحقق كان عمدة البلد يقول انه حقانى مثلنا . نحن ناصرناه لأنه قال انه حامل كلمة الحق ويرفض الطغيان .
ثم حاولتم أن تقتلوه .
حينما أراد الحيدة عن كلمى الحق .
أعطيتنى بقولك الدليل .
حينما زادت مظالمه قتلته بقلبى مائة مرة ومرة .
هذا اعتراف منك .
يا أخى أنا أعبر عن نفسى . وهى افتراضاتى ولو أنك أردت الحقيقة . فحكايتى لاترتبط بالحقانية بقدر ماهى حكاية تخصنى والعمدة .
تخصك وسيدنا .؟
وكان يا أخى لم الحقانية فرصة لاقتناص بلا شوشرة .
غير أسلوبك . كف عن ترديد لفظة أخى لا .قل . سيدى .

لا أقصد يا أخى .. آسف ياسيدى .. تعلمنا أننا جميعا أخوة . هل استطرد فى سرد حكايتى يا أخى .
أف ..قل..
العمدة أحب محبوبتى .
العمدة .؟
أحب محبوبتى . خطيبتى . إن كنت تبغى دقة التعبير .
طرق الحظ بابك .
قال اتركها أعينك خفيرا .
مسعد . محظوظ . كنت ستعمل مساعدا لى بدلا من رميتك هذه .
وصل به الأمر أن وعد بجعلى من مشايخ البلد .
فرحت . وافقت طبعا. محظوظ . مصيبة كنت ستصبح رئيسا وتكتب عنى التقارير .
بل رفضت .
أيرفض لسيدنا طلب . غبى .
لم أكن بمستطيع اجابته .
ضيعت نفسك . غبى .
فوق طاقتى أن اجيبه لطلبه .
غبى .
محمد الرسول صلوات الله عليه وسلامه استثنى ما يخص القلب .
قال : اللهم الا مافى قلبى .
وتضيع المشيخه . غبى .
كان قول الرسول أمامى أتمثل به .
تشدقكم بالدين ضيعكم . أغبياء.
نحن مؤمنون يا أخى لا متشدقون . ألست مؤمنا ؟
ولكن .. ليس بمثل هذه الطريقة .
ليس فى الإيمان طرق . فاما أن تكون مؤمنا أو لا تكون .
خير الأمور الوسط .
يا أخى . الوسط ، ونظرية العصا التى تمسك منه تصلح لأمور الدنيا لا الدين .
متشدق . غبى .
يا ..
لاتضيع وقتى . الأحرى أن تعود لحكايتك وحبيبه . كفا سفسطة .
ارسل العمدة فى طلبى .
متسامح . عظيم .
رفضت .
هه .. ماذا تقول ؟
رفضت .
رفضت . وقعتك سودا .. المادة رقم ٨٠ تقول الرفض يوقع الرافض تحت طائلة قانون العقوبات . وقانون العقوبات للستينات يقسم الرفض لنوعين : رافض لقوانين " ميت جابر " . ورافض لأوامر العمدة . فإذا ما كان الرفض لقوانين ميت جابر حول الرافض لمحكمة الجنح . وإذا كان الرفض لأوامر العمدة حول الرافض لمحكمة الجنايات . وتنص المادة أ من الجزء ب على أن عقوبة الرفض لأوامر العمدة تتراوح بين السجن بالأشغال الشاقة مدى الحياة أو الإعدام .
عجيب أمر قوانينكم .
قوانين عادلة .

يا أخى . أيسجن مع الرأفة من يرفض " ميت جابر " . ويعدم من يرفض العمدة ؟ لابد وأن الأمر قد التبس عليك .
أمجنون أنت ؟ لا لبس فى القانون . هذا هو كتاب الأحكام . وهذه المادة مذيلة بأختام العمدة . وهذا توقيعه فوق كل تعديل .
يا أخى . لقد حلمت بأن يكون لى من حبيبة إبنا . لكن .. بعد الذى سمعته منك كرهت أن يكون لى طفل تحكمه مثل هذه .. ماذا تسمونها يا سيدى ؟
****

كتب المحقق أمام اسمه : خطر . جرثومة تنخر العظام والقوانين . يجب عزله . لا يستبعد أن يكون زعيم العصابة التى حاولت اغتيال العمدة .

******

بالكاد يستطيع أن يقف داخل زنزانته . الحيطان تضيق به . السقف مرتفع يتدلى منه خطاف حديدى صدئ . الأرض تنز عفونة ورطوبة وقد فرشت بألواح الثلج تلسع قدميه المصفرتين بعد أن تجمدت فيها الدماء .

عليه أن يستجمع بقايا قوته يضرب بقدميه الثلج بكل عنف آلامه قافزا لأعلى .

كرر المحاولة مرات حتى استطاعت أطراف أصابعه أن تقبض باستماتة على الخطاف المتدلى من السقف .

ظل على تعلقه بالخطاف إلى أن تفككت أصابعه تحت ثقل جسده فسقط من جديد فوق الثلج .

والأوامر تقضى بأن يظل فى زنزانته٤٨ ساعة – ٢٨٨٠ دقيقة ويستثنى إذا تجمد جسده .

****

يا أخى فى الجوار . لا تئن . لا تصرخ . اصبر . قل : الله أكبر ..
هو أكبر مهما تطاولوا .
حتى ذاتك يا الهى ما سلمت من ابليسيتهم .
هو أكبر .. اكبر .. اكبر
دوت الصرخة مريرة من الأعماق . ثم مات كل شئ . حتى الصمت مات . والصياح ما ت . وكيف يكون هناك صياح . ووقع خطوات السجان يسحق العظم ، والدمعة المهموسة تردد : أنه من الظلم وبالظلم جاره بالسجن .. مات .

****

.. وسقط فوق ألواح الثلج مغشيا عليه . جروه خارج الحجرة . رموا به فى ركن زنزانته القديمة .

العينان الكليلتان مغشيتان بالدمع . الرأس الحليق المكدود يطوف بداخله السؤال . يلح :

– كيف يستطيع إنسان إيذاء أخ له لم يؤذه . بل لم يره ولم يسبق له أن تعرف عليه . بل ولم يتبادلا كلمة .

كيف يستطيع إنسان أن يحمل كل طاقات الحقد التى تجعل من نعليه قدمى شيطان تحطمان الضلوع وتطيحان بالأسنان . ومن يديه قبضتى إبليس تنقبض لتلوى الأعناق . وتسيل الدماء . وتسلب الحياة .

كيف لإنسان أن يفعل هذا بإنسان ؟؟؟
****

يا أمى . يا أبى . يا اخواتى . يا اخواتى . أصرخ فيكم لتجيرونى مما أنا فيه من ألم . لا أصرخ لأن جسدى امتهن حتى صرت أدنى من حيوان . لكن أصرخ من آلام نفسى . فلماذا يقع كل هذا الظلم على إنسان ؟؟

****

انه لا يصلح اطلاقا لمساءلته .
سنحقنه بالموروفين .
العيون شاخصة لأعلى . الفك متجمد من الألم .
يصفع بشدة فتنصلح الأمور .
هو فى حالة غير طبيعية .
إذن فهو أصلح لأن ينطق من عقله الباطن بلا مقاومة .
أخاف أن يموت .
لا يهم . أريد أن أنتهى من التحقيق . هنالك مئات غيره .
لحظات لأنادى من يسنده للحائط حتى يصبح فى وضع يمكن من لطم وجهه .

****

.. وبالكاد فتح العينين . بإصرار حرك الفكين. ثم انطبقا فى عناد وشريط الدم رغمهما من الجانبين يسيل بعد أن أطلق الكلمات :
يا أخى المحقق . منذ اللحظة لن أقول لك أخى. فلست بأخى . فكلكم جلادون تحملون سياط العذاب . واخوتى بحق هم المساجين . انها كلمات اقولها لوجه الله : أن فككتم من جزاء الدنيا فلن تمكنوا فى الآخرة من فرار . ومنذ اللحظة لن أنطق أمامك بكلمة . وليغفر الله لى ولهم .

******

ضرب ما نطق .
طفئت السجائر فى جسده ما أن .
هو فى غيبوبة طويلة .
بل هو عنيد .
مفتاحه بيديها .
من ؟
حبيبته .
حبيبته ؟
لكن العمدة ؟
نستأذنه .
سيأذن بالتأكيد .
هى جرحت كرامته .
وهو لاينسى الإساءة .
قد يحضر ليشهد .
ويشمت .
وتهدأ نيران الحقد .
فيشكر لنا هذا الصنيع .

- ٣ -

نلتها فما شعرت بأنى نلتها .
كنت أشعر بأن ذاتى تمتهن ذاتى

لكنهم لم ينالوهـــا..

ما عدت أنام الليل .
- ....
كلما تذكرت ما فعلوه بحبيبة صرخت أعماقى : أنت لست منى .
- ....
العيون الطيبة المباركة وقد أفزعها الرعب حتى كادت تقفز من المآقى .
- ....
الثياب وهى تنزع عنها وتمتهن .
أبدا لم تمتهن .
رأيتها بعينى تمتهن .
محال .
أمامك امتهنوها .
أموت ولا أرى مثل هذه اللحظة .
سألتها عن أهلك .. ناسك .
أنت من سأل .
قالت أنهم شردوا من ديارهم .
أنت من سمع .
الأب مات بحسرته عليك .
ما سألتها .
ابتسمت وسط جلاديها .
ما رأيتها .
قالت وهى تسمو على جراحها انها لا تنساك .
ما سمعتها .
أنت تهرب من واقعك .
أنا لا أهرب .
مظالم الناس تلتف حول عنقى فلا أستطيع الصراخ .
جزاء ما قدمت يداك .
سوط العمدة يطاردنى .
هو لا يصيب غير الجسد .
أما من قوة على هذه الأرض تمنع عن ظلم الناس ؟!.
هم يتشدقون بالشعارات . هم ساسة محترفون . عذابات البشر لا تعنيهم .
وأنا . من هم مثلى . جلادون مرغمون .
......
عذابات الضحايا تؤرقنى ..

....
أكاد أجن .
....
لمصيرك أسير ..
وهل أنا إلا أنت .
وهل أنا إلا أنت .

****

إنه يهذى بأشياء غريبة .
فاقد العقل لا يدرى ولا يلام .
هو يمجد العمدة .
أيعقل هذا ؟
يقول العمدة سيد الجميع ..
أترك أوراقه وقلمه .
نسى تماما ماذا كان منذ رأى ما فعلناه بحبيبته .

****

العنبر المستطيل مكتظ بالمعتقلين . الخفر يراقبونهم فى يقظة وتحد وكراهية . رجل كث الحواجب معقوف الأنف يندس بينهم . يتحسسهم . يوجه إليهم نظرات ثاقبة .
العمدة .
دوت الصرخة فى المدخل . هرول الخفر يدفعون المعتقلين لصق الجدران فتصدهم الجدران لكن الخفر لايكفون عن الدفع حتى أصبحت تسمع من آن لآخر فرقعة عظام الأقفاص الصدرية للمساجين .

****

اسمك ؟.
تعرفه .
ردى على العمدة يابنت .
قفى يابنتاه واحترمى نفسك .
اسمك .؟
اسأل أيا منهم عنه قد تكون آنسيتهم اياه لكنك تذكره فأنت مطارد به .
تحدثى بأدب وانظرى إلى من تتحدثين .
هو من يحتاج الأدب .
هو العمدة .
سيدنا وحاكم البلد
عميت منكم البصائر . بقى أن تعمى العيون .
اخرسى .
تقدم المحقق . اندفع من بين الصفوف متلقيا الصفعة . وصاح
أنا أعرفها . كلنا نعرفها . لا داعى لهذا كله .

لكزه شيخ الخفر فى بطنه بمؤخرة بندقيته . انحنى . تلوى . تكور . سقط ما ارتفع له صوت .
وان سارع أحد الخفراء بقيمة من أسفل إبطيه ليستطيع أن يقف فلا يصح إلا أن يكون الجميع وقوفا فى حضرة العمدة :
دعوها. أين هو من بين كل هؤلاء ؟

****

اسمك . ؟
مظلوم .
هل تعرفها ؟
هى أمى .
قهقهة العمدة ...
.. قهقهة مشايخ البلد .
.. قهقهة شيخ الخفر .
.. قهقهة الخفر .
ــ تقصد حبيبتك . ؟
ــ وحبيبتى .
ــ ماذا تحب فى حبيبتك ؟
الناس والخضرة والأطفال .
الأطفال ؟
تقول أنهم يومها المقبل .
وماذا أيضا .؟
من يرعاهم يؤمن الأساس .
هى اذن تحب الأطفال ؟
لحظت هذا ياعمدتنا ..
سنرى .

****

الطفل الصغير مرفوع من رجليه . يبكى ..
لحظة ميلاد رائعة و ..
بغتة صرخت . فقد أسقط الطفل فى إناء به ماء يدفع بأبخرته الحارة فى الوجوه .
صرخ الطفل برعب ثم ملأ الماء فمه فاختنقت وفقات الصراتخ . :
ارحمونى يرحمكم الله .
اندفعت فى جنون تريد أن تحتضنه . تفتديه . لكن الأيدى تكبلها كالبلاء . ارتفع الطفل خارج الإناء . قاء الماء من جوفه، ثم صرخ ضاربا الهواء بيديه بحركات هستيرية متخبطة .. مستنجدة :
ــ ماجداوى. واه غداه ..
من سيكشف لنا حقيقة هذه المرأة ؟
لم يجرؤ أحد أن يتفوه بحرف . للمرة الأولى يشعرون بما يشبه اليقين بأنهم ما صمتوا خوفا من العمدة . لكنه اختار واحدا وأمر :
اختل بها. أنت . أنت . نعم . أنت .

****

الآن ما عاد لك أن تفاخرى بأنك عذراء .
يا عمدتنا نلتها فما شعرت بأننى نلتها . كنت أشعر بأن ذاتى تمتهن ذاتى .
حتى أنا فى لحظات رغبتى فى امتلاكها كنت أخاف .
كل نساء ميت جابر تحت أمرك ياعمدتنا .
هل هناك إمرأة تقول لك لا . أنت سيد هذا الوجود .
فسقط أأمر وسترى .

******

.. الكلمات لصيقة عقله . هو هكذا يجتر الكلمات التى تمجده . وكلماتهم أيقظت فيه أمنية قديمة . أن تكون له امرأة من نساء جيرانهم " النشوية " . وأن تصير مصاهرة يستطيع بها أن يضم عمودية ." نشوة العمودية " ميت جابر " .

ـ دعوها . أخفوها من أمامى . لقد مللتها . يجب أن أركز الفكر والعمل . لتكن لى امرأة من نشوة .

******

نشوة.. يا نشوة ..
العمدة يريد شرباتا ..
لكن كوبه سيمتلئ قهوة .
ماذا يقول ؟
مجنون يا سيدنا ..
عقله طار .
هى عذراء .
اطردوه .
ما امتهنت . أنفسكم تمتهنون .
اقذفوا به إلى الخارج .
ياطاغوت ..
ماذا ؟
مجنون يسب خفير الحراسة .
يا طاغوت .. يا طاغوت .
اطردوه . أخفوه . أكله حرام .
طاغوت . يا طاغوت . يا رب السماوات . يغطس ويموت .
****

.. ودوت فى أعقابه طلقة لكنها أخطأته . أصابت قلب الصقر حارس العمدة ذى الحواجب الكثة فسقط جثة هامدة .

****

لم تسقط كلمات المجنون . تمددت من بطن الجبل وراحت تتردد وتتأكد يوما بعد يوم فى أزقة " ميت جابر " . حتى ما عاد يعرف للعمدة اسم فى همس الجوابرة غير : الطاغوت .

****
****
****
*

الليلة الثانية

ـ ١ ـ

العينان امتلأتا بالدمع
حتى ما عاد المتحلقون حول شيخ الكتاب يدركون

إنهم يشيحون

طيلة النهار ونحن نهرب .؟
نتجنب أن تلتقى العيون .
نخاف أن يتجدد السؤال .
حتى الطريق غيرناه .
رحنا نلف وندور . ونسلك مهجور الطرق . كى لا نمر من أمام الدوار .
فهناك رد السؤال .
والسؤال همس مهموس .
لا نستطيع أن نجهر به ..
جعل حياتنا كلها همسا ..
اختلط علينا الوهم بالواقع ..
رحم الله أيام زمان .
أيام العمدة القديم تعنى ؟
كان رحمة .
يكفى أنه ما صادر أصواتنا .
كان دستوره واضحا .
الله . ميت جابر . العمدة .
هذا إذا كان له دستور .
كفاكم ياجوابرة . قد يكون مات . أذكروا محاسن موتاكم .
ولماذا لايكون هو أحسن من سابقة .؟
لا هذا ولا ذاك .
شيخ الكتاب موجود ..
هو يحفظ كتاب الله لا كتاب الأحكام ..
وبالعدل سيحكم ..
زمان أم الآن يا شيخ الكتاب ؟
وبالعدل سيحكم ..
زمان أم الآن ياشيخ الكتاب ؟
ورزقى على الله .
ورزقك على الله ..
زمان .
تقولها وقد أسهمت فى ضياع ذلك الزمان..
أنا ؟
ألم تعلم العمدة ..
ألم يكن تلميذا فى كتابك .
إذن هو مطيع لك ..
من علمنى حرفا صرت له عبدا ..
إلا العمدة ..
نعم. إلا هو ..
كيف ؟
ألا تدرون يا أهل بلدنا . هكذا انتم لا تدرون .
وهل رأيناك منذ زمان يا شيخ الكتاب .

لك عشر سنوات أو يزيد لم تغادر كتابك .
أنت أيضا تتخذه دارك .
وأنتم ألا تسألون ؟
وهل نستطيع أن نسأل عن نسائنا إن غبن حتى نسأل عنك ؟
السؤال معناه شك فى العمدة .
وهو لا يحب لأحد أن يشك فيه .
وقبل أن تغادر علامة الاستفهام مكانها ..
تنضم إليها علامة ثانية تتساءل عن مصير من ألقى السؤال .
وتتوالى العلامات وتتكاثر .
فالصمت إذن من ذهب .
واليوم ها أنت تطفوا من القاع .
مرغما بعد الذى سمعت من العيال فى الكتاب .
الشياطين باحوا بما أقسموا ألا يبوحون به ..
حكوا لك عما رأيناه فى ليلتنا الماضية .
وجئت لأسأل ..
تسأل من ؟
أسألكم .. هل العمدة ..مات ؟

******

.. رغم كل شئ طوف السؤال .
.. طفت ذكريات هربوا منها طيلة النهار .
.. ماذا لديهم يا شيخ الكتاب يقال ؟
.. والحقيقة قابعة هناك بالدوار .

******

الليل أخطبوط رهيب ..
العيون تملأ الظلام ..
قد تكون عيون صانعها الوهم .
قد تكون عيون ترقب ..
لكن من يجرؤ يا شيخ الكتاب ..
منذ صرخ المجنون ..
منذ هربنا بجلودنا ..
حقيقة . نحن لا نجرؤ ..
أتستطيعه أنت أن تذهب ؟
أن تقترب من طلاسم الدوار وتستطلع .
لعلك تسمع ..
لعلك تدرك الحقيقة .،.
فأنت اقوانا لأنك معلمه ..
فان كان هنالك امر خفى ..
فأنت بالقطع ستعلمه .

*****

هل يقول لهم الحقيقة . أيصرخ :
ـ أنا أخاف تلميذى يا أهل ميت جابر ..
.. لكنها لا تخرج من الحلق . وجهة الممصوص تقصد منه العرق . وهم لا يدركون ما هو فيه . هل يقول لهم الحقيقة التى جعلته لا يجرؤ على ولوج دروب القرية .
لا تغادر الكتاب وإلا جعلت الخفر يكسرون ساقك .
لماذا يا عمدة ؟
لا استفسار ؟
.. لعل واش وشى بى ؟
هو قرارى .
لا اله إلا الله .. أهكذا يا عمدة . تعامل من جعلك تضع القدم على درجة العلم ؟
******

أتعرفون يا جوابره ؟ أتدرون ماذا كان الجواب يا أصحاب من علمنى حرفا صرت له عبدا ؟؟
: أأقولها ؟
العينان فاضتا بالدمع حتى ما عاد المحلقون حو الشيخ الكتاب ليدركون
: هل هى حبات عرق تساقطت من فوق الجبهة الى تجويف العينين أم أنه يبكى تلميذه مجهول المصير ؟

******

أتذهب ؟
فقط ليرافقنى تلميذ من أبنائكم ..
وتعيده ؟
إن شاء الله سيعود بالسلامة حتى لو لم أعد .

*****

.. الليل حالك الظلمة .
.. الحوارى خالية تماما .
.. حتى الخفر لا أثر لهم .
.. الدوار مظلم كالقبر ..
.. لا أثر لضوء او حتى لشعاع.
.. أيضا مامن أحد يحرس الدوار .
ـ من هناك ؟
انتفض الشيخ . بسمل وحوقل . استعاذ بالله من الشيطان الرجيم .
اخرتك دنت ياشيخ الكتاب : ايكون الطاغوت .؟
ـ من هناك ؟
.. ضاع منه الصوت فما عاد يستطيع جوابا.
.. اقترب شبح نحيل يتطوح فى مشيته .
قال أن يكون الملعون .
تنهد الشيخ . تراخت يده المتشنجة . ترك يد الطفل وراح ينتفض :

أخائف أنت يامعلمى ؟
……
هو المجنون فلا تخف .
الله يكرمك ياولدى .
ولكنك ما زلت ترتعد .
هل أقول لك حقيقة لا يعرفها غير الله وأنت ؟
قل يا أستاذنا .
فقط لا تصرح بها لأحد إلا بعد أن أموت .
كما تريد يا أستاذنا .
سأسألك سؤالا أصدقنى الرد عليه .
نعم .
إذا كبرت . وتذكرت أننى كنت أضربك وأنت صغير لأنك كنت كسولا لا تحفظ دروسك جيدا .إذا كبرت وأصبحت شابا قويا . مفتول العضلات أصبحت أنا شيخ ممصوص العود . متهالك كما ترى . وأبصرت أتضربنى يا ولدى ؟
أنت كأبى يا معلمى .
أتعفوا عنى ؟
أعفو عنك يا استاذنا ؟ كنت تعلمنى . كأبى لما يقومنى .
الله يفتح عليك . لكنه لم يفعل مثلك .
من ؟
الملعون ابن الملعون .
هو الطاغوت يا سيدنا ؟
نعم يا ولدى .
فعل بك مثلما فعل بالمجنون .
لقد صفعنى يا ولدى ويا ليتنى جننت بعدها . تصور يا ولدى . صفعنى بكل جبروت ولم يرحم ضعفى . قال لى : مثلما فعلت بى لحظة أخطأت . تصور يا ولدى . تخيـل !!
أستاذنا . انك ترتعد .
……….
وأيضا تبكى .

توقف الشيخ تماما . فلقد زاد انفعاله حتى صار النشيج يهزه هزا حتى ما عادت القدمان تتحملان ثقل الجسد .
أستاذنا .. لاتبك .. خذنى فى حضنك لأقبلك ..
انحنى الشيخ يحتضن الطفل فى وله وقد تدفقت عبراته :
لمثلك يا ولدى أحيا وبمثلك استشرف الغد .

****
****
**

- ٢ -

انك تسرق أباك . وأنت تسرق
أمك التى تسرق أباك . فكيف
تستقيم الأمور فى بيتكم ياولدى؟؟

خيشة .. أكرهك

جلسا وسط الظلمة . عينا الشيخ المتعبتان تنسجان قناعا فوق قسمات الطفل .
تماما يا ولدى . مثلما جاء بك أبوك للكتاب . جاء به . منطويا خجولا . فسألته عن اسمه فكره أن ينطقه .
قال أبوه : هو خيشة ياسيدنا .
قلت : ونعم الاسم . ومابالك لا تنطق ياولدى .
نفر كالحصان الشارد وقال : لانى أكرهه .
ولماذا تجعل ولدك يحمل اسما لايحبه ياعبد الله .
هى أمه أسمته على اسم أحد طلائق صاحب الأرض التى أعمل بها .
ليس الأمر بمعضلة . طلب للصحة يجعل اسمه كما يحب .

******

يا أستاذنا . الحق .
ألحق ماذا يا شيطان ؟
خيشة.
مابه ؟
يغرق فى الترعة .

******

جريت إلى الترعة . وجدت العيال متحلقين حول بقعة قريبة . وكان خيشة يطفو ويغوص فى الماء .
تلفت حولى مستنجدا . ما من أحد من الجوابرة على الشط .
رفعت يداى عاليا وصحت :
_ النجدة .
ولكن من يسمع . ومن يجيب . وأنا ما تعلمت العوم يوما . كنا وحيد أمى .وكانت تملأنى رعبا من نزول الماء . حتى الاستحمام ما جعلتنى يوما أجلس فى وعاء ليغمر الماء جسدى . ولكنا كانت تحكم على أن أظل واقفا .

لكن خيشة يغرق . مسكين . وبماذا تجدى الكلمة . شمرت جلبابى فوق ساقاى وقلت الستار موجود . ثم غصت فى الماء . ورحت أمد يدى حتى أمسكته . وأخرجته . وصاح الشياطين الصغار :

– يعيش سيدنا ..

****

سيدنا .

نعم ياخيشة .

– قلت لأبى انك تستطيع أن تغير إسمى .

– نعم . لكن الأمر ليس بالسهولة التى تتخيلها . انه يكلف أموالا .

– أمى تخفى نقودا من وراء أبى .

– أعوذ بالله .

– أستطيع أن أحضر لك الصرة وتأخذ منها ما يكفى .

– استغفر الله يا ولدى .

– وماذا فيه يا سيدنا ؟

– أمك تسرق أباك . وأنت تسرق أمك التى تسرق أباك. فكيف تستقيم الأمور فى بيتكم يا ولدى ؟!.

****

ضربه أبوه كما لم أضرب طفلا فى حياتى . . لم تدمع له عين .

: أتراه حقيقة يكرهه كما يشاع ؟

.. المهم أنه بعد أن أبعدت أباه عنه . نظر إلى والحقد يفيض من عينيه وصرخ بى متوعدا .

– أتشى بى عند أبى . سأغير اسمى رغم أنفك . رغم أنوفكم جميعا .

....

خذ .

ما هذا .؟

الجنيهات التى تحتاجها إجراءات تغيير اسمى .

هل طلبتها من أمك . ؟

ليس شأنك .

تأدب ياولد .

أعلم أنك ستشى بى ثانية عند أبى . لكن إذا حدث هذا ؟ سأجعلك تندم على فعلتك طيلة عمرك .

ياولد لايصح .

سأهرب من كتابك واختبئ بين أعواد الذرة وأقذف النوافذ بالطوب حتى يهرب الأولاد ويصير كتابك خرابا .

****

امتلأ الشيخ غيظا .
لم يتمالك نفسه .
ضرب خيشه .
لم يأبه . نظر إليه فى تحد :
إذا لم تغير اسمى سأقذف بنفسى فى الترعة بعد ما أقول لأبى أنك تتوعدنى بالغرق إذا لم أسرق لك صرة المال التى حدثتك عنها . فإذا مارميت بنفسى فى الترعة ومت . رمى بك أنت فى السجن .
لمحت التصميم فى عينيه المجنونتين .
فزعت ..
خفت ..
حقيقة خفت ـ لأول وآخر مرة شعرت بالخوف وأنا أواجه أحد أطفالى ـ تراجعت . أمسكت به من كتفه وسألته متوددا :
وماذا تريد اسمك أن يكون .
العمدة .
العمدة ؟؟
لأننى سأكون عمدة ميت جابر .

****
****
**

- ٣ -

لا أستطيع يا سيدنا أن أخذل
زملائى. هم اختارونى زعيما لهم .

الزعامة والمظاهرات

يا عبد الله . ابنك انهى دراسته فى الكتاب بنجاح .
وهل يستطيع أن يكتب اسمه ويجمع ويطرح .
يستطيع .
الحمد لله . سأجعل مالك الأرض يبحث له عن عمل فى البندر .
خسارة يا عبد الله . الولد ممكن يستمر فى التعليم .
أنت تعلم أننى فلاح فقير ولا قبل لى بمصاريف البندر .
سأحاول أن أبحث لك عن حل .
والله يا سيدنا هو ابنك وتصرف كما يتراءى لك .

****

يا بك سبق طلبت منى أن أبحث لك عن حالة بين أهل البلد لتساعدها .
حدث هذا .
طفل مجتهد . يستأهل أن يستمر فى تعليمه بالبندر . خير ستقدمه لميت جابر .
إذن على خيرة الله . أبحث له عن مسكن بالمدينة وألحقه بمدرسة خاصة وكل ما يحتاجه سأدفعه لك .

****

يا عمدة ألا تكف عن السير فى المظاهرات .
لا أستطيع يا سيدنا أن أخذل زملائى . هم اختارونى زعيما لهم .
ولكن أخاف عليك من الفشل فى دراستك .
لا يهم .
سيقطع عنك البيك المعونة .
أستطيع أن أعمل فى الصباح وأدرس فى المساء .
ولم كل هذا العنت ؟
من أجل بلدى .
بلدك ؟
نعم .. البلد ستضيع إن لم تجد الزعامات الصالحة .
لقد أتعبتنى معك .

****

ما الذى جاء بك ؟
البك قطع المعونة عنى .
لقد طلبت منه هذا بعد ما أعلنت استعدادك لأن تجمع بين العمل والدراسة .
أتصدق يا سيدنا لقد كنت أضحك ؟؟
إذن ستكف عن التظاهر ؟
سأكف ؟
الله يهديك . سأكلم لك البك .

****

ماذا فسعلت فى موضوع حبيبته ؟
ماذا ؟.
زواجى من حبيبة ؟
حينما تنتهى من دراستك أخطبها لك .
وما المانع من أن أخطبها الآن ؟
تحادثنا من قبل فى هذا الأمر .
وأنا أصر عليه .
يا ابنى انتبه لدراستك .
هذا سيزيد من اجتهادى .
وعودتك للتظاهر .
هو جزء من رسالتى .
إذن حينما تستقر نباحث . فلقد وعدت وحنثت .
بل أريد أن أنتهى من هذا الأمر . سأسافر لميت جابر . لأطلبها ان لم تفعل أنت .
أذن سأريحك .
ماذا ؟
أهلها رفضوا ..

****

قيل لى أنك تسأل عنى يا سيدنا .
أنت زميل العمدة يا ولدى .
نعم .
قل لى حكايته والزعامة والمظاهرات ؟
من ؟
أو ليس العمدة زعيمكم ؟
العمدة . لقد حاول مرة أن يعتلى الأكتاف . وضرب حتى أدمى وجهه ولولا وجودى وانتشالى له من بينهم لانهوا حياته .
انتم إذن لا تصرون على أن يكون زعيما ؟
هو يريد أن يلفت الأنظار إليه .
وهى مصيبته .

لقد نجحت يا سيدنا .
مبروك .
أنهيت دراستى .
وانتهت بذلك مهمتى .
بل لم تنته بعد .
دائما تلف وتدور . افصح عما تريد .
أريد من البك أن يوظفنى .
سأرجوه .
بل هو واجبه أن يوظفنى كما علمنى .
عجيبة .
وليكن عملى هنا بميت جابر .

****

يا سيدنا أمنع العمدة عن حبيبة .
أهل البلد تضايقهم سخافاته .
هو غير كفء لها .
تافه مندفع يتصرف تصرفات صبيانية لا تليق بسنه .
هو يسئ إليها .
فإذا لم تفعل .
توليناه نحن .

****

هل سمعت يا سيدنا ؟
سامحه يا بك .
لقد جاءنى رئيسه وشكا لى منه .
أيضا حضر إلى أهل البلد شاكين .
أهل البلد علموا بأنه بدد جزءا من عهدته .
إذن هو فى عمله غير مستقيم ؟
لقد قال رئيسه أنه كان سيفصل لولا خاطرى .
لا اله إلا الله .
لم تقللى مم كان يشكو أهل ميت جابر ؟
لا داعى لأن اثقل عليك .
قل يا سيدنا .
يشكون من محاولاته لاستمالة حبيبة .
والله يا سيدنا لقد جانبك التوفيق فيمن اخترت .
حقيقة يا بك . أشعر تماما بأننى قدمت المعروف لغير أهله .

****

أراك تسير مطأطئ الرأس يا سيدنا .
وكيف أرفع الوجه والإحساس بالذنب يطوق عنقى .
ذنب . أى ذنب ؟
ذنبى فيما أسهمت به من جعل خيشة عمدة لميت جابر .
يا رجل هى إرادة الله .
والبك الذى أضاع على تعليمه الشىء الكثير من ماله .
سمعت أنه قرر أن يجعل من أرضه ملعبا .
ـ الأدهى أن الرجل جاءنى . رجانى أن اتوسط له لدى خيشة الكلب . بعد ما رفض أن يقابل البك .
ـ ثم ؟
حاولت أن القاه . قال انه مشغول . وسطت أحد المشايخ فقال أن الملعب ضرورة لشباب الجوابرة .
معه حق .
يلعب شباب الجوابره فوق ارض البك وتحرمه من زراعتها ونترك الخرائب للبوم حتى لا نحرمه من خيراتها !!
حقا بالبلدة خرائب كثيرة يمكن أن تستغل . أرض البك كانت تعطى الكثير من الخيرات .
هى إذن ليست حكاية حاجة البلد لملعب . وإلا ما منع الماء عن باقى ارض البك .
يعاند البك ويخرب الأرض . تماما كردمه المصرف رغم فوائده الكثيرة .
هكذا هو منذ كان صغيرا . يحب أن يظهر ويتظاهر ..

****

تتابعت الدقات رقيقة رغم شدتها . مما يشى بأن اليد التى تطرق الباب انما هى يد طفل .
تمطى شيخ الكتاب فى فراشه وتثاءب . ثم نظر فى ساعته وهو يتمتم :
أى شيطان حضر للكتاب والساعة .. الساعة ..
فزع الشيخ من فراشه ، فالوقت بعد يقترب من الفجر . محال أن يكون الأمر كما ظن .
من بالباب ؟
أنا يا سيدنا. أنا . أقبل يديك افتح .
حالا .
أسرع قبل أن يرانى أحد .
ادخل يا بنى . ادخل .
ارتمى الطفل بين ذراعى الشيخ وهو ينشج فى رغب عظيم .
ماذا بك يا ولدى ؟
أبى . أبى . اخوتى . اخوتى .منزلنا . حديقتنا يا سيدنا .
ماذا. ماذا ؟
كل شئ صار حطاما .
حطام .اباك. منزلكم . من ؟ من أنت ؟
أنا ابن البك .
سقطت اللمبة من يد الشيخ وهو يستدير ليواجه الطفل بالضوء ليستبد الظلام بالمكان :
إهدأ . اهدأ يا ولدى ثم قل لى ماذا حدث ؟

****

القصر يحوطه الظلام .
ما من صوت ينم عن يقظة أحد بداخله .
فجأة يبدد الصمت صوت دقات عنيفة مدمرة . وصرخة وحش :
افتح الباب .
وتدافع الخفر يحطمون كل شئ.

أين الكلب ؟
من تريدون ؟
سيدك البك يا ابن الكلب .
هو بحجرته .
اقبضوا عليه .
أين زوجته .
بحجرتها أيضا .
أحضروها هنا .

****
البك يرتعد رغم تجلده .
منامته لم تفض عنها آثار العرق .
نعم يا شيخ الخفر ؟؟
أنت مقبوض عليك .
أنا . لماذا ..
هى أوامر .
هل يعرف العمدة بها ؟
هو من أصدرها .
إذن ..
أين زوجتك ؟
هاهى قادمة . ولكن رحمة بها . هى مصابة بأمراض عديدة . ثم هى هلعة كما ترى لأنها لم تعتد مثل هذه المواقف .
اصمت ..

****
كانت رغم تجاوزها الأربعين جميلة شامخة . سألها شيخ الخفر عن مجوهراتها . فأرشدته . هجم الخفر يتخاطفونها ثم استداروا إلى يديها يخطفون بالعنف ما تتحلى به ..
ارموها خارج القصر .
فقط أرتدى ملابسى .
غير مسموح .
استرنى يسترك الله .
هذا كلام نساء . الأوامر أوامر .. ارموا بها إلى الطريق .

****

.. لم يعد يطيق .
.. أمواله تبدد .
.. زوجته تهان .
.. شرفه يمتهن .
.. كل هذا يحدث بلا ذنب إلا لرغبة ذلك المجنون يريد أ ينهى كل اثر لمن يذكره بماضيه

- هذا كثير . كثير .
- امشى أمامنا ..
- تحرك .
- ما باله متخشب هكذا ؟
- امشى يا كلب .
- ادفعه ببندقيتك .
- لقد انهار تماما .
- مات .
- بل لقد شل .

****

شهدت هذا كله يا سيدنا ففزعت وقفزت من شباك حجرتى الى الطريق حيث أمى تنتفض من الإهانة والبرد ولا من أحد يستطيع أن يفتح بابه لتأوى اليه .
مساكين الجوابرة يا ولدى فقدوا كل حلو الخصال .
أريد أبى وأمى يا سيدنا . توسل للعمدة أن يعفو عنهما.
عمدة .ملعون العمدة وأبو العمدة . فوالله لأذهب إليه . وألقاه رغم أنفه واسمعه كل ما يخاف غيرى أن يواجهه به وليكن ما يكون .

****

شيخ الكتاب. انطق . ماذا تريد . وقتى ثمين .
هذا التماس من البيك لتفرج عنه . لقد قبضوا عليه .
اعرف .
طردوا زوجته بملابس نومها .
أعرف .
ذهبت لألتقطها .
تدافع عن أعدائى .
هو العيش والملح .
وبعد؟
وجدتها مكومة بالطريق مغمى عليها ونبضها لا يكاد يسمع .
تستأهل . هو جزاء ما تطاولت به على يوم أمرت بأخذ أرضهم .
البك رجل طيب لم يسئ إليك ودائما كان يرجو لك كل خير . هذه مظلمته وستنصفه بإذن الله وكفاه ما لاقاه .
امسك بالقلم . كتب فى الفراغ المحيط بالتظلم دون أن يقرأ كلمة أن : يفرج عنه .
رقص قلب الشيخ فسرحا . لكن القلم لم يتوقف أضاف : عند الوفاة .

ـ ما هذا يا عمدة. أهذا جزاء الإحسان . ما ذنب البك . ماذا جنى ؟
ـ اخفض صوتك . أنت فى حضرتى . كن فى حالك . وإلا أصابك ما هو أقسى مما أصاب أبيك.
.. استدار الشيخ محطما ليخرج . ناداه العمدة . استبشر الشيخ خيرا :
ـ هل تذكر أيام الكتاب ؟
.. زاد الأمل لدى الشيخ :
ـ كنت عفريتا يا عمدة .
ـ وكنت تضربنى كثيرا . هكذا .
.. ارتفعت اليد الضخمة وهوت فى صفعة مباغتة على وجه الشيخ فتطاير الشرر من عينيه ولولا تماسكه لسقط منهارا .

****

.. السماء سوداء .
.. السحب القاتمة تقتل كل محاولات الشمس .
.. هو لا يرى حتى تحت قدميه .
.. ولا يرى حتى ما هو أبعد من لحظته .
.. أنت يا شيخ الكتاب سبب كل هذا البلاء .
.. أنت يا شيخ الكتاب ولا أحد سواك .

****

.. عاد لداره .
.. فتح الباب ودخل فى صمت محاذر أن يراه أحد .
وصل إلى فراشه بالكاد وارتمى فوقه يجهش بالبكاء .
ما قام من الفراش .
نام ما قام .
انتابته حمى مدمرة لا يدرى من أين ولا أين ؟
لسانه فقط يلوك الكلمات ويبصق اللعنات .

****

العمدة يطلبك ..
يا ولدى لا أستطيع أن أستقيم .
قال أحمله إلى أن عجز عن السير . فان لم تستطع فجره جرا .
الأمر لله . سأجيء معك .

****

لا تغادر الكتاب وإلا جعلت الخفر يكسرون ساقك .
ـ ....
ـ ....
ـ ....
ـ ....
ـ أيضا ان سمعت أنه تكرر منك ما رددت سأطيح بك من على وجه الحياة .
ـ ما قلت شيئا يا عمده .
ـ تطاولت يا شيخ عفريت .
ـ يا عمدة لقد كنت مريضا لا أكاد أعى .
ـ هى كلمة قلتها ولا ترد .
ـ يا عمدة .
ـ هو قرارى إياك أن تعصاه وإلا سحقتك .

****

****

الليلة الثالثة

- ١ -

جعلنى كمثل من جذبوه من دوامة
فأفاق ليعرف لأول مرة أنه كان يدور
مع تموجاتها .

حقيقة : لا أعرف

عاد سيدنا ليلة أمس وما قطع عرقا ولا أسال دما .
كان يبكى فى صمت .
لعله أدرك الحقيقة .
أكد الصبى أنه ما ولج باب الدوار .
هى ذكريات مريرة مع الطاغوت .
هو أيضا اتهامنا له بأنه ساعد العمدة على أن يكون طاغوتا .
وأنتم السبب يا جوابرة .
نحن ؟!.
نعم نحن . جميعنا .
الاتهامات توزع . ونحن لا نتغير . نهرب من مواجهة الواقع .
حقيقة .
.. لو واجهنا الطاغقت ..
.. لو قلنا له : لا ..
وكيف تكون اللا . ونحن نرتجف فرقا حين يذكر اسمه ؟!!.
لولا أننا فى جلستنا هذه يعرف بعضنا بعضا ما جرؤنا على أن ننبس بكلمة .
ما جروءنا على ذكر اسمه
منذ البداية كان يوقف عند حده .
قبل أن يتوحش
ويتشعب كسرطان خبيث .
لكننا انقسمنا على أنفسنا
رأينا اللعنة تحيق بنا ما اتحدنا
تصيد الحقانية من بيننا ما فكرنا فى أن نقول : دعهم .
اختفوا فما أثار اختفاؤهم مجرد التساؤل بيننا .
جتى ومن بقى فردا منهم يصرخ بالجنون .
دفنا الرؤوس وتظاهرنا بالصمم .
وما درينا أن آذاننا قد صمت عن سماع الحق .
قاسمنا أرزاقنا .
ألب علينا أبناءنا .
أثار هلعنا حتى صنع خوفنا شبحا رهيبا التف بنا أسميناه الطاغوت .
هو محيط بنا فى كل مكان .
حتى انى اشعر به يشاركنى الفراش مع زوجتى .
فهو يسيطر على اذهاننا .
وذاته فوق كل ذات .

حتى الموت الذى هو حقيقة تصيب كل البشر
جعلناه يتخطاها فهو لا يموت .
حين نظرنا الى الجثمان
اقشعرت منا الابدان
شللنا رعبا
ما استطعنا أن نقترب . حتى نلمس مكان القلب
أضاع خوفنا فرصة المعرفة
تجمدنا فى أماكننا
ذقنا مرارة الصلب
وظل السؤال مطروحا بلا جواب
.. مات الطاغوت . أم لا ؟!!.
****
السلام عليكم
وعليكم السلام يا شيخ البلد
مرحبا بالشيخ صابر الطيب
حقيقة طيب مثلما كان أبوك الطيب رحمه الله .
فيم تتكلمون يا رجال ؟.
وهل بيننا رجالا يا شيخ صابر ؟!.
ولم لا والرجال جزء من الحياة باق ما بقيت ؟!.
لا نشعر برجولتنا .
لقد ضمرت وانتهت .
ضاعت من أعز عناصر الرجولة .
صرنا نخاف
حتى من أنفسنا نخاف
ولكن معك أنت نذكر أباك .
نطمئن .
ثم نفيق لحقيقة كونك شيخا من مشايخ البلد
فنتوجس
نبتلع نصف الكلام
ونصف الصدق
رغم كوننا نثق من أنك لن تشى بنا
لأنك من طينة غير طينة العمدة والمشايخ
أنت نبت صالح
لكننا نتوجس منك
هو شك أصله الخوف
فلماذا لا تكون أنت أيضا عين ترقبنا
وما الغريب وأبناؤنا قد جندوا ليتربصوا بنا
وعلى من ؟!..
الأب والأم والأخوة والأخوات !.
وها أنت تأتى إلينا
وترانا كما ترانا فى كل مرة
مهمومون
ولا نصدقك القول
ولكننا هذه المرة سنصدقك
وينطلق السؤال الذى حيرنا وما زال
حقيقة هل مات العمدة . أم لا ؟.

****

.. الصمت طال .

.. ما من كلمة تقال .
.. جبل ثقيل من التوجس بعد طرح السؤال .
.. والخوف يكبل الرجال .
.. أن يصل إلى الطاعوت السؤال .
.. ويكون القرار .
.. ويخصى كل الرجال .
.. وما حدث للحقانية .
.. ما صار ذكريات .
.. طفا إلى السطح . قابلا للتكرار .
فالسبب فيما كان ..
: زلة لسان .

****

الحقانية نصف البلد . هكذا كانوا . لهم مشايخهم . ولهم لياليهم الدينية . يرفعون فيها علمهم . ويقولون قولة الحق ابتغاء وجه الله . ولو كانت على أنفسهم ، لهم فى الجوابرة ثلاثة مساجد . كانوا يعتزمون أن يجعلوها خمسة . تسألهم : ولماذا خمسة ؟. فيقولون : بنى الإسلام على خمس. شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله . وإقام الصلاة . وايتاء الزكاة . وصوم رمضان . وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

كانت لهم مع عمدة الجوابر ة مواقع .
كثيرا ما اعترضوا على أحكامه الظالمة .
فالله هو الحق ولا يرضى ظلما للعباد .
.. كان العمدة يهاب جرأتهم فى الحق .
تظاهر بحبهم . وأنه منهم .

****

ليلة النصف من شهر شعبان . اجتمعوا للصلاة فى المسجد الكبير . تحدث الخطيب عن العدل وإحقاق الحق ونصرة المظلوم . ارتفع فجأة صوت عويل مقهور . ورغم اندماج الخطيب فى خطبته . إلا أنه توقف مأخوذا . وراح يدور ببصره بين الجلوس . يبحث يدقق . وبدأ كل الحضور يبحثون . إلى أن استقرت العيون على شيخ طاعن يجفف دموعه بطرف جلبابه .

ــ دموعك يا أبى أغلى من أن تذرف . دمع الرجال تهتز له السموات .

ــ ذكرتم الظلم . فذكرتمونى بما حاق بى من ظلم . شاهدت ولدى وهو يطرد من بيته وعمله لمجرد أنه اعترض على خطأ . قالوا إنه يناوئ المسيرة . وجاءنى بالحسرة يجر وراءه زوجته وعياله ،انا لا أملك قوت يومى .

ــ هذا ظلم .
ــ بداية طاغية .
ــ فعلة شيطان .
ــ العمدة صار عميلا للشيطان .
ــ بل هو الشيطان .
ــ فوالله لا نسكت عليه .

****

.. وفى غمرة الانفعال .
قيل ما قيل .
واندفع ألف لسان يحمل ما قيل .
إلى آذان تضج بشبق مبررات الانتقام .
فمنذ حاربوا الدواخلة . والعمدة يفهم قوتهم .
وهى قوة تنغصه .
تهدده .
تغل يده فلا تنطلق تعمل الفساد كما يريد .
وتركهم حتى تفرقوا إلى دورهم .
وانقضت جحافل الخفر والظلام تحطم عليهم الأبواب .
تبطش بهم وهم نصف نيام .
وصحت ميت جابر وما من حقانى باق فى داره .
وأصبح احساس الجوابرة واحد .
فما حدث ليس عار العمدة بل هو عارهم هم .

****

ـ لم كل هذا السكوت يا رجال ؟!.
ـ طرحنا عليك هم السؤال .
وما زلنا للجواب فى انتظار .
هل تعرفون ماذا فعل بى سؤالكم ؟.
خير يا شيخ صابر ؟.
جعلنى كمثل جذبوه من دوامة فأفاق ليعرف لأول مرة أنه كان يدور مع أمواجها بلا إرادة وبلا إدراك . ولا يدرى لماذا ولا ماذا ولا كيف ولا لم .
ولكن السؤال ما زال معلقا ينتظر الجواب .
أتصدقون ؟.
بالقطع نعم .
أنا لا أعرف .
لا تعرف ؟!.
حقيقة لا أعرف . فلم أبلغ بشىء .
ولم لا يا شيخ صابر .
فأنت دخيل عليهم .
نسيج شاذ فلست من ثوب العمدة ولا باقى المشايخ .
ولا ندرى كيف تأتى لك أن تكون بينهم .
ولا لماذا تستمر واضعا يدك لنحتويها أيديهم ؟!.
ـ هو ما يشبه الإلهام . ألا أحيد . أن أصبر . أن أواصل . ألا أسقط كالذين سقطوا . وأن وعد الله آت بالبشرى للصابرين .

ـ ٢ ـ

إنكم أمام الأمر الواقع .
ولا مناص من الامتثال .

بدء التساقط

مالى أراك حزينا ؟!.
لتوى آت من زيارة قريب سجين .
.. ورأيت مالا يسرك ؟
هذا السجن اللعين متى يهدم ؟
دورنا أن نسعى لهدمه .
ذهبت أجيال وأتت أجيال وهو قائم ببطن الجبل يبتلع أنات المظاليم .
لنسرع . فبإسراعنا إسراع فى هدمه.
ليس بالتسرع يا " عمده " تقضى مثل هذه الأمور .
وأشعر أن عمدة البلد يدرك ما ندبر .
هو حتما يداخله شك فى الخفر . لكن فى أيهم على وجه التحديد . هو لا يدرى .
إذن لنأخذ القرار ونسرع .
لنا زملاء . القرار للمجموع . هى حياتنا جميعا .
كما ترى. لكنه سيكون قرارى .

****

.. لا ينسى الشيخ صابر النظرة الغاضبة التى اقتحمته .
.. لا ينسى غيظه الكظيم .
.. الآن .. فقط الآن .
.. ويدرك أن الإنسان . لو تمعن لحظاته لحظة بلحظة لما حدث ما كان .
.. ولتدارك الكثير قبل فوات الأوان .

****

ـ فجر اليوم . عندما يأتى الخفر لاستلام سلاحهم نشرح لهم خطتنا .
ـ هل سنقودهم يا " عمده " ؟ .
ـ لا . أنا واحد منكم . ليكن أكبرنا سنا .
ـ اذن فهو عمنا ..
ـ فإذا وقع مكروه اختفينا وتركناه ليواجه مصيره مع عمدة البلد ..
ـ أعوذ بالله . ما هذا الذى تقول يا عمده .
ـ الضحك معك محرم يا " صابر " .
ـ كنت أحسبك جادا .
****

.. الفجر يؤذن .
.. النسمات تحمل الصوت الرخيم إلى آذان الجوابرة وهى نصف مدركة ، يلح عليها .
.. يهدهدها باللوم .
.. الله اكبر .. الله اكبر .
.. الصلاة خير من النوم ..

****

.. الشيخ " صابر " يأخذ مكانه بين المصلين . حتى إذا ما انتهت الصلاة وتحرك الجوابرة للانصراف :

- يا أهلى.. يا أبناء بلدى .. لا تنصرفوا . أريد أن أنهى اليكم خبرا سارا تبدءون به يومكم .
خير إن شاء الله يا صابر .
أنتم تعرفون أن عمدة البلد غريب عنها .
حقا .
وأن له أعوانا أفسدوا وكثرت المظالم ..
قول الحق ..
لهذا قررنا أن نطرد العمدة من ميت جابر ..
الله أكبر والله الحمد ..
عفونة أستأصلت .
غمة أزيحت .
****

هل قبضتم على عمدة البلد ؟
هو مودع بسجن الممالك ببطن الجبل .
من قال هذا . ومن أمر به ؟
هو زميلنا " العمدة " .. " شيخ صابر "

****

ألم نتفق يا عمدة على أن أول عمل ستقوم به هو هدم سجن المماليك ؟.
كان هذا اتفاقنا قبل أن نقبض على عمدة البلد القديم وأعوانه .
والآن ؟
يجب أن نحافظ على سجن الممالك حتى يعدم العمدة القديم وأعوانه .
يعدموا .؟
بالقطع .
قررنا ألا يكتب عملنا بدم البشر .
هذا أبسط جزاء .
يبدو أنه لا جدوى من الجدل معك يا عمدة.
افعل ما تشاء .
هناك زملاء ومجلس لمشايخ الجوابرة وستكون مشيئة الله ومشيئتهم .

****

يا أخوتى " العمدة " يقول بإعدام العمدة القديم .
استقيل من فورى .
صبرا يا عمنا . المجلس سينظر .
انظروا وتناظروا أما أنا فقد أعلنا رأيى وانتم أحرار .
ما هذا الذى تقول يا "عمدة " ؟
****

" قرر مجلس مشايخ " ميت جابر " ترحيل العمدة القديم من القرية وعدم مساس حياته أو تعريضه للخطر . "

****

أين زميلنا " العمدة" ؟
لم يحضر المجلس منذ صدر القرار .
بالتأكيد غاضب هو لأننا لم نأخذ برأيه .
ليس من أهدافنا أن يفرض الفرد رأيه .
وإلا ما تمردنا على العمدة القديم.
حتى عمنا لا يحبذ هذا القرار ولا يريده .
حقا لا أريد للدم أن يسيل فهو كلعبة الغيث قطرة واحدة ونغوص فى بحار الدم .
وهو رأينا جميعا .
هو هكذا مندفع لا يعرف الوسط .
لنذهب إليه فنصالحه . فلا يجب أن نتساقط .
أمرك يا عمنا .

****

لنقسم بالله جميعا يا "عمدة " ألا نفرد أحدنا برأى . وأن نحافظ على " ميت جابر " ونصون حرية أهلنا .

****

وضعت الأيدى فوق القرآن والمسدس .
رددوا القسم.
وان لحظت عينا الشيخ " صابر " ترددا لا يخفى على عين خبيرة أن تدركه شاع فى قسما " العمدة " . وان لم يلحظه الباقون لانفعالهم الشديد أثناء ترديد القسم حتى أن عيون البعض دمعت تأثرا .
أما العم فقد أجهش البكاء وهو يردد اسم " ميت جابر " .

****

أتبكى " ياصابر "
لقد ضاقت " ميت جابر " من حكامها. مظالم عظيمة . واليوم أخاف عليها من ظلم أبنائها . فهذا ما لايطاق ..
ان شاء الله لا يقع عليها ظلم جديد .
فنحن من صلب طينها ..
وقد أقسمنا .

****

بلا استئذان .
دفع الباب بقدمه .
دخل قاعة الاجتماع .
بيده ورقة يلوح بها ثائرا :
هل رأيتم بماذا يطالب العيال ؟
أية مطالب وأى عيال ؟
اسمعوا : " نحن الخفراء طلائع حركة الإطاحة بعمدة ميت جابر القديم والذين عرضوا حياتهم لرصاص عصابات العمدة وأنصاره . نرى أنه على من نصبوا أنفسهم مشايخ للجوابرة أن يعودوا لأعمالهم الحقيقية وهى حراسة " ميت جابر " وليتركوا لأهلنا اختيار العمدة الذى يريدون . فإن كانت لنا حنكة فى أمور فلا قبل لنا بشئون الإدارة " ... كلام فارغ . وهل ولد المشايخ وقد أرضعتهم أمهاتهم أسرار الحكم ؟
صبرا يا " عمدة " أرى فعلا أن لرأيهم وجاهته .
وجاهته ماذا ياعمنا . يبدو أن كبر سنك أثر عليك ..
إنها إهانة لى وللمجلس الذى اختارنى . وحتى تسحب هذه الإهانة اقدم استقالتى .

****

ينتشر الخبر بين " الجوابرة "
تشتد ثورة الخفر .
يتذكر " الجوابرة " ماكان يفعله العمدة القديم : كل يوم شيخ جديد . وتغيير وتبديل ولا استقرار .
يستشعرون الخطر .
ينتفضون فى صيحة واحدة تحمل شعارا :
" لا استقالة ، ولا عمدة جديد "

****

حذرناك " ياعمدة " من الاندفاع . جعلناك تقسم .
صدقونى هو خطر علينا هذا العجوز المخرف .
والحل والبلدة غاضبة لاستقالته ؟
دعونى أقبض لكم على متزعمى حركة الخفر وأرمى بهم فى سجن الممالك فتخمد الثورة .
بل سيزيد هذا من غضب الناس .
الناس لاقيمة لهم . الكلمة دائما لمن بيده السلاح .
يا " عمدة " كن معتدلا هداك الله.
ما تطلب مغامرة قد تنتهى الى صدام يقتل فيه الجوابرة بأيدى بعضهم البعض .
إذن ترفض استقالة عمنا .
ويعود عمدة من جديد .

****

انتابت " ميت جابر " أفراح عظيمة .
العمدة العجوز عاد .
حتى من لا يعرفون غير حرث أرضهم وزرعها وريها فرحوا .

اشتروا لعيالهم الحلوى من الدكاكين .
وكانت ليلة من أجمل ليالى " ميت جابر " فأهل ميت جابر ناس طيبون .
العمدة العجوز أيضا طيب : ملامحه . تصرفاته . بساطته .
لهذا أصر "الجوابرة " على أن يحملوه فوق الأعناق ويطوفوا به خلال شوارع القرية وأزقتها .
ورفعوا الكلفة بينهم وبينه فراحوا ينادونه كما ينادوا مشايخهم ب : يا عمنا .

****

أين العمدة ؟
له يومان مختف لانراه .
هو غاضب لعودة عمنا
أقسم ألا يعود للمجلس طالما هو فيه .
عمنا هو من سأل عنه .
تعرفون العمدة رأسه صلب .
عنيد هو ليس من السهل ترويضه.
عمنا يصر على أن نتماسك .
عمنا يريد مصالحته .
فى ابتعاده الآن مصلحة .
لو تواجها ستكون مهزلة .
أن مجرد ذكر اسم عمنا يصيبه بالهوس .
إذا استمر " العمدة " على ابتعاده وسيكون ايذانا بخريف مجلسنا .
كل ما أخشاه أن يكون يدبر لشئ.

أين أنت يا "عمدة " .

أنا الآن هنا .

وقبل .

كنت أمهد لأن أكون هنا .

لا أفهم ؟

ألم أطلب منكم أن تطلقوا يدى ؟

ورفضنا .

وتحملت مسئولية عملى وفعلتها .

فعلتها ؟

سجنت الأولاد المتمردين .

الأولاد المتمردون .

سجنتهم ؟

أنصار العجوز المخرف وأقاربه وأقاربهم أيضا . هو عقبة تحطم مخططاتنا بفكرة الشائخ .

لندعوا باقى المشايخ للاجتماع .

ونتداول .

إنكم أمام الأمر الواقع . ولا مناص من الامتثال وإلا فان خرج الأولاد من سجن المماليك فلا عيشة لكم فى " ميت جابر " .

هذا حقيقى .

إذن ما العمل ؟

تصدرون قرارا بالإجماع برفع العجوز المخرف من العمودية وقد أطلقت أبناء أم صقيف يشيعون أن العجوز يتآمر ليعيد العمدة القديم لميت جابر . وبذا اصبح الجو ممهدا تماما .

ولا يتبقى غير أن يصدر القرار .

وأنا على استعداد لآن أتلقى الصدمة الأولى بإعلانكم اسمى خليفة له .

وهكذا ستعود العمودية لتتوارث .

فبعدما كانت تتوارث من افراد عائلة واحدة

سيتوارثها أفراد مجلس مشايخ الجوابرة .

هى بلدنا ياصابر ونحن أولى بحكمها .

وان لم يكن ياعمدة . فنحن أمام واقع فرضته أنت .

****

يا شيخ " صابر " . لقد وليت أمر ميت جابر . أنت تعرف أن الناس يحبون الكلام الحلو والوعود الخلابة .
ثم ..
أريدك أن تكتب لى كلاما منمقا لانى سأتخذ قرارا يسعد الجوابرة .
أى قرار ؟
سأمنع ماكينة الرى الغربية من العمل ..
بهذا تقطع الماء عن الدواخلة .

يقطع
هم جيراننا
الجوابرة سيسعدون بهذا فالدواخلة يضربونهم كلما ذهبوا لتحويل مسار الماء ..
الدواخلة يستأجرون الماكينة منا .
لكنها ماكينتنا ونحو نريدها .
العقد ينتهى بعد شهور . هى سنة بالكثير فلا تجدده .
شئ لا اهتم به كثيرا .
سيسمونه البعض بلطجة .
لا أهتم بآراء الآخرين .
قد يدفع قرارك الدواخلة لتحطيم الماكينة .
لايجرؤون .
هم قوم أقوياء سيرفعون نبابيتهم وينطلقون ولن تستطيع ميت جابر أن تردهم بحال من الأحوال .
بل تستطيع .
هكذا بالقول .؟
وبالفعل أيضا .
هى طنطنة ياعمدة.
بل هو جهل منك .
وهدفك من هذا كله ؟
أريد أن أفعل مالم يفعله أحد من قبلى . أريد أن أخرج على الجوابرة بشئ يسعدهم .
شيئ يحببهم فيك .
هو ذاك .
وقد يكون هذا الشئ أو الفعل وبالا على رءوس الجوابرة .
سترى الخير .
لا خير للجوابرة : فى إيقاف الماكينة.
ليس مهما أن تكون هناك إفادة مادية يكفى أن الجوابرة سيشمتون فى أعدائهم ويشعرون أنهم أقوياء يستطيعون أن يناصبوهم العداء .
إذن نجمع مجلس المشايخ .
لامجلس بع الآن .
هذا أمر يمس مستقبل البلد .
سأحل المجلس .
تحله ؟؟
سأجرى انتخابات العمودية بين الجوابرة .
إذا رشح أحد ضدك ستخسر بدون شك .
محال .
لم ؟
لأمرين . أولهما أنه لن يرشح أحد ضدى . وثانيهما أننى سأكون قد أبلغت الجوابرة بقرارى بمنع تشغيل ماكينه الرى .
إذن مادو رى أنا حتى تنادينى .
أن تكتب الكلام الذى سأقول .

انتابك هم عظيم يا شيخ " صابر " .
ما نمت الليل .
ظللت تقلب الأمور على كل وجوهها .
هل تؤلب المشايخ ضده ؟
هل تترك له المجلس وتعود لحياتك القديمة تمارس الهرب والمطاردة من جديد . وهذه المرة مع زميل .
وإذا هربت : أوه .. لا.. لا جدوى .
كل ما عليك ألا تكتب .
ألا تنمق له الكلام .
فإن لم تستطع فبقلبك .
وهذا أضعف الإيمان .

****

هل كتبت ما كلفتك به يا صابر ؟
لا . ثم ليس لك أن تكلفنى فكلنا فى مشيخة ميت جابر زملاء .
ما عادت هنالك مشيخة ولا شيوخ . هذا قرارى . وأنا الرئيس ..
قرارك أنت . أما قرارنا نحن فلم نصدره بعد .
لقد بعثت بالطبال ينادى فى الناس أن يجتمعوا أمام الدوار . سأحدثهم عن قرارى بإيقاف ماكينة الرى . وبإمكانى أيضا أن أحدثهم بقرارى بإلغاء مجلس المشايخ . ما رأيك ؟
ليس لى وحدى أن أقرر . لست إلا واحدا من عشرة .
إذن ابحث عنهم حتى تكل قدماك .

****

وقف يتحدث إلى الناس .
كانت جموعهم تلهب جنونه .
راح يتخبط ويتقرب .
يهبط . يسف .
فما خيبت الجموع ظنونه .
تخير أحط الكلمات .
والعبارات .
وببذاءة العاهرات .
أعلن القرار.
صفق الجوابرة منتشين .
وتطاير من أكفهم الشرار.

****

يا شيخ صابر .
العمدة يطلبك .
يريدك أن تذهب إليه فى الحال .

****

أهلا يا شيخ صابر .
إننى لن انسى لك هذا الجميل . فلو أطعمتنى وكتبت ما طلبت لما اكتشفت اللغة التى يحب الناس إن أخاطبهم بها .
ولكن .....
هل رأيت كيف سيطرت عليهم وأثرت انفعالهم ؟
الـ........
الحقيقة الجوابرة ناس طيبون وقد عرفت طريقى للنجاح معهم ولن أحيد عنه .

****

هو إذن استقبال الشامتين .
يريد أن يستذلك بنجاحه .
وأى نجاح هذا ؟
كلام سوقه يؤلب الجميع ضد " الجوابرة " .
وينتهى الأمر بأن نقول : عليه العوض فى " ميت جابر " .
ليتك يا صابر كتبت له الكلام .

****

اجتمع شمل الدواخلة .
حتى العائلتين المتنافستين على الرى تصالحتا .
جيران أراضيهم رأوهم يتسلقون الأشجار .
يقطعون الأغصان .
يجهزون العصى .
وقعتك وقعة يا ميت جابر .

****

يا عمدة . الدواخلة ينتوون الدخول معنا فى معركة .
اجمعوا مشايخ البلد ..
لقد حللت المجلس ..
أنا من حللت . وأنا من أعيد ..

****

ما هذا ؟
التماس من عمنا ورجاله بأن يخوضوا معنا قتال الدواخلة .
هم شامتون .
يا عمدة . ليس الوقت وقت شماتة .
نحن نعيش وقتا عصيبا .
مصلحة ميت جابر يجب أن تكون فوق كل مصلحة .
وأنت قد دعوت مجلس المشايخ .
فيدب أن تسمع لنا .
وأن ترتضى مانحكم به .
سأوافق على طلبهم ولكن إذا بدا لهم أن يتآمروا على فسأعيدهم لسجن المماليك حتى لو جعلت الجوابرة يديرون ظهروهم للدواخلة ليحاربوا العجوز ورجاله .

****

- ٣ -

.. تنهضين من عثرتك داخل حفر المظالم ،
نتفاءل بالمصير
.. فتقعين داخل حفر أشد وأنكى

حفر المظالم

هجم " الدواخلة " بكل رجالهم . كانت بأيديهم العصى . وعلى الأكتاف البنادق .
تحطمت الماكينة تحت ضرباتهم تماما .
أرسل العمدة بخفر ميت جابر ليردوهم .
لكن الأخبار عاد بها الوحيد الذى نجا والدم يسيل من رأسه بغزارة وبكلمات تكاد تموت فوق الشفتين :
لقد قتل الدواخلة كل زملائى .

****

الله أكبر . الله أكبر . حى على الكفاح . حى على الكفاح .
من المؤذن ؟
ليس صوت شيخ الجامع ؟
منذ قال له العمدة صوتك يزعجنى ..
وهو لا يرتقى المئذنة .
ولا يرتفع صوته بآذان .
الله أكبر . الله أكبر .
هو صوت العمدة .
العمدة ؟
سبحانك يا رب ..
تهدى من تشاء وتضل من تشاء .

****

قاتل أبناء عبد الحق قتال الأبطال وعلمهم الأخضر يرفرف فوق الرؤوس .
كان الحقانية يرفعون المصاحف مكبرين باسم الله .
ويخوضون النار والحديد .
العمدة القديم رغم كبر سنه أمسك بالفأس وضرب وضرب .
كان رجاله نعم الرجال ..
والصرخة الواحدة كانت تهز الفؤاد.
الله أكبر تحيا ميت جابر .
قوية تنطلق . تملأ بالحماس .
حتى النساء خضن القتال بالطوب وأغطية الأوانى المعدنية .

وتوقف الدواخلة عند المسقى وقد تقطعت منهم الأنفاس .
وهكذا ما استطاعوا أن يتلفوا زراعتنا .
لكن الماكينه صارت هشيما .
وليس لها أن تعمل قبل أعوام وأعوام .

****

العجوز ورجاله يثيرون الفتن .
يا عمدة ليس وقته .
يتساءلون أين الرجال المسلحون الذين حدثت الجوابرة عن أعدادهم .
معهم حق .
عدنا ثانية للرفض والتعليق . معهم أنتم أم معى ؟
يا عمدة مازال الدواخلة . وقد انضم اليهم الشفامية على جسر المسقى يلتقطون الأنفاس .
ولسنا فى موقف يسمح بالانقسام .
إذن قولوا لهم إن يكفوا ألسنتهم وإلا فسجن المماليك بعد لم يهدم .

****

تدخل الجيران .
تم الصلح .
اتفق على أن يترك " الدواخلة " جسر المسقى ويعودوا لديارهم ولهم التعويض الذى يريدون .
أما الشغامبة فقد أخذوا بئرا مهجورة ليستغلوها واقتطعوا لأنفسهم بعضا من ارض " " ميت جابر " .
ولم يذكر العمدة هذا لأحد
ولم يعلم به أحد !!

****

يا شيخ صابر .
نعم يا عمدة .
لقد انتصرنا على الدواخلة والشغامية وهزمناهم .
هزمناهم؟!!
هم ما استطاعوا أن ينتصروا علينا ..
ولكنا ما استطعنا أن نهزمهم .
سأقيم أعياد النصر . وقبلها هناك قراران أردت أن أخبرك بهما لنبلغهما لباقى المشايخ :
القرار الأول : إعادة العمدة العجوز وأنصاره لسجن المماليك . والقرار الثانى : حل مجلس المشايخ .

****

يا عمدة ..لقد فكرت طويلا فيما سمعت منك بالأمس . إن ما قررته سيقضى عليك تماما ..
لقد سجن بالفعل العجوز ورجاله .
لكن الجوابرة كلهم يتحدثون عن غدرك.

غدرى .؟!!
هم يستعيدون بموقفك فعلة محمد على مع المماليك .
أما قرار العجوز ورجاله فلا عودة فيه . كل ما أراه هو أن نؤجل قرار المشايخ ، ولى معكم شأن آخر .

****

زينت شوارع " ميت جابر " بالأنوار .
أرسل العمدة فى طلب ماكينات للإنارة من البندر .
وفى الليل .
والأضواء تلألأ .
وقف العمدة يخطب فى " الجوابرة "
يؤكد لهم أنه انتصر على أكبر بلدين الشغامبة والدواخلة .
وأهلا بمنازلة من يجرؤ على التعدى على " الجوابرة ".
ثم راح يشيد ببطولات " الجوابرة " وقوتهم وأسطورتهم فى القتال .
حتى أدار الرؤوس فما عادت تذك مئات سقطوا فى ساحة العراك .
ولا دور المصلحين الذين حالوا بين استطراد الداخلة فى عراكهم ..
والأكف وسط النشوة كادت تدس من التصفيق .

****

الجوابرة يصفقون ..
بل قل أبناء أم صقيف .
أبناء أم صقيف .
هل ابتزل إلى هذا الحد ..؟!
لقد اشتراهم منذ طرد عمنا . ذهب للعجوز فى دارها وقال أنه منهم . يود أن يرعى شئونهم مثلما كان العمدة القديم وزيادة وقرر لأولادها أجورا شهرية تزاد عند كل مناسبة .
إذن هم يبدءون فينتشر الحماس .
ويزيد التصفيق .
ولا إدراك لما سيرسبه العمدة فى نفوس الدواخلة .
ولا لكون ما يصفقون له قرار الإيذان .
بعراك جديد ..
بفقد جديد . .
فمن المحال أن ينسى الدواخلة أضراره بمصالحهم ..
المصيبة أنهم يصنعون البنادق ..
المصيبة الأكبر أن ينتصروا للشغامبة بعد ما عاديناهم .
وناصروهم .
والشغامبة هم أعداؤنا الحقيقيون .
فهم أرض متاخمة .
وأحلام فى أن يغنموا الساقية .
ليضمنوا ريا من الترعتين .
وهم إذا أرادوا فعلوا .
وهل ننسى أنهم نزلوا أرض النواجمة بخرافهم رعاة يجوبون أرض البيارات .

وانتهى مطافهم بأن امتلكوا البيارات ..
كانوا يشترون الأرض بالنعاج فى الصباح ..
وفى المساء يتسللون إلى الحظائر ليسرقوها ..
وتتكرر اللعبة مع كل صباح ومساء ..
وتدور الدوائر . وتتأمر الدنيا ..
ويحالفهم مشايخ أقوى البلاد ..
ويكتشف النواجمة فى النهاية أنهم أصبحوا بلا أرض .
وبلا دور..
مشردون .
فمن لم يبع قتله الشغامبة .

****
ما هذا الذى يحدث ؟
هو لا يجد من يرده .
ولا من يبصره .
أصبح كالفتوات ..
ما عاد يحسب لاحد حسابا ..
ولا يدرك أن ما يقول لا يخصه وحده .
هو يغامر بقدر الجوابرة .
إذن لنقل له .
نواجهه .
ننصحه .
لكن . ما رأى باقى المشايخ .
هم يتجنبوننا .
قربهم العمدة إليه .
أدق عليهم المناصب والأموال ..
ما أخطره رجل ..
أفلا نذهب إليه ؟
نحن قلة .
سنجد من يشجب قولنا .
****
هل سمعتم بما فعل الشيخ عاكف ؟
ذهب للعمدة .
فعل ما لم نفعله .
قال له : أن ما تفعله استبداد برأيك . من أجله هذا كرهنا العمدة القديم . لكنك اليوم أكثر استبدادا من الغريب . وبعد اليوم لن أضع يدى فى يدك .
معه حق .
رجل والله .
الاعتكاف خير من تورط المنساقين .
سأذهب لاسمعها له .
يا اخوتى إن فعلتم سيأتى بمشايخ ملاعين لأنهم سيصنعون الشر وسيورطون ميت جابر فيه .
والله يا شيخ صابر هى فلسفة ..
وهى فوق هذا مقدرة على الصبر ..

والمثابرة .
أما نحن فقد نفذ كل مدخر ..
فما عادت لنا على الاحتمال مقدرة.

****

ليلتها ما نام الشيخ " صابر "
رفع يديه نحو السماء مستنجدا .
دعا الله أن يزيده صبرا .
أخذ يستعيد الأحداث .
وما تحمله من مؤشرات .
فالسجن الذى حلم بأن يهدم .
قائم بعد مازال .
يحتوى بين جدرانه الأصدقاء .
بل يضم أعز الرجال.
تضاعفت همومه .
لكنه مافقد الأمل ..

****

أهكذا حالك دائما يا ميت جابر .
تنهضين من عثرتك داخل حفرة المظالم .
نتفاءل بالمصير .
فتقعين فى حفر أشد وأنكى .
ومالك حتى من عشيرتك نصير ..

****

حينما أشرق الصباح عليه ، كان قد عاهد النفس ألا يرى الطاغوت منذ اللحظة .
فما انتبه إلى الكلمة .
إلى انه اسماه طاغوتا . تنهد مؤكدا :
تالله إنه لطاغوت .

****

هذا أنا يا جوابرة .
فأنا القريب البعيد .
العارف المجهول .
البائح المكتوم .
بالإسم أحكم .
والفعل محكوم .

****

الليلة الرابعة

ـ ١ ـ

فلتكن الليلة محاكمة صغرى
فقد تجئ المحاكمة الكبرى

بدء الحساب

الليلة ياجوابرة سآتيكم بجواب السؤال .
وليلة أمس .
ذهبت إلى دارى وقد دار منى الرأس . كنت كمريض بالحمى فما استطعت أن أغادر فراشى وقد تكالبت على صور الماضى .
يا شيخ صابر عجيب أمر بلدنا .
أنت هنا ..
والمشايخ هناك فى دار أم صقيف يجتمعون .
لهم على هذا الحال ليال ثلاث .
منذ انتشرت الشائعة وهم هناك .
هل أنت شيخ مثلهم ؟
أم أنك لست منهم ..؟
منهم ولست منهم. منهم بالاسم، لكن الفعل يقول أننى أحد المشايخ القداس الذين ظلوا على عهدهم وخلافهم .
والجدد ؟
قد تسمعون رأيى فيهم عن قريب .
والآن إلى أين ؟
كان العزم فى البدء إلى الدوار .
والآن؟
إلى دار أم صقيف لأنه يبدو أننى أيضا بحاجة إلى اكتشاف الكثير .

****
السلام عليكم .
وعليكم .
أهلا صابر .
نسينا أن ندعوك .
لليال ثلاث تجتمعون وتنسون ؟
يبدو أن هناك خللا .
لأول مرة تخرج أخبارنا دون أوامر .
أهى مؤامرة يبرها المشايخ القدامى يا صابر ؟
وأين هم المشايخ القدامى ؟ وأين هو من يستطيع أن يتآمر بعد أن قطعتم حبال الود بينهم والجوابرة ؟

هى أوامر العمدة .
والعمدة قال لكم شوهوا صورة كل شئ قديم .
قال .
وأمر .
ونحن ننفذ أوامره.
أهو من أطلقكم لتنهشوا عرض عاكف فما برئت من ألسنتكم بناته أو زوجته . جعلتم منه سخرية وفكاهة يتندر بها الناس ؟
قال طاردوه .
ألم يكفكم أنه استقال واعتكف ؟
قال دمروه..
اجعلوه عبرة ..
ما هى جريرته ؟
العمدة قال : ليكن عقاب المتمرد مستحدثا ورهيبا .
.. إذا ترك بلا عقاب ..
..قلده الآخرون ..
وضاعت مهابتى ..
إذن كانت هذه أوامر العمدة بالنسبة لأصحابه من مشايخ الجوابرة القدامى . فهل هى أوامره : أن اجعلوا من الجوابرة أشباح بشر . أن خربوا ميت جابر . أن ...
كفاك ..
تركناك تتكلم يا صابر فظننت أنك قاض .
نسيت أنك أمام الطاغوت تصير لا شئ .
طاغوت .. تقولون على ولى نعمتكم طاغوتا ؟
نحن الذين جعلناه ..
صنعناه ..
أصبحنا نسيره ..
أصبح لا يسمع إلا من حناجرنا ..
ولا يرى إلا بعيوننا .
فلا تنسى هذا ..
هو لعبة بأيدينا ..
وأنت ما أنت إلا ظل العمدة ..
أسماك نائبا له .
نحن شجعناه ..
لأنك مسلوب الإرادة ..
لا تملك من أمور التنفيذ شيئا ..
نحن من نملك .
نبنى ونهدم .
فحذار .
انس أسلوبك القديم .
تحدث معنا بما يتناسب وقدرتنا .
وقدرك أنت أيضا .
ما يخصنى لا يهم . ولا أسألكم عنه .
ماذا تعنى ؟
أعنى أنه من حق الجوابرة أن يسألوكم .
نحن نسأل ولا نسأل .

هذا ما اعتدناه ..
واعتاده الجوابرة أيضا .
وإذا أصررت فأمرك بيدنا ..
نطلق أبناء أم صقيف .
يتغامزون ..
يتضاحكون ..
فتصير مضغة فى أفواه الجوابرة .
ومضحكة كل مجلس .
أو يبكون ويتباكون..
على العدل الذى ضاع على يديك .
والظلم الذى اقترفته .
وجنايتك فى حق الجوابرة .
ولما تختفى ..
يقال : يحيا العدل .
لقد نال جزاء وفاقا ..
هو أسلوبكم تخيفون به ضعاف الأيمان .
بل هو أسلوب الطاغوت ..
تعلمناه منه ..
وطبقناه بكل حذقه .
حتى صار يخاف أن نستخدمه ضده .
كان يقولها لنا ضاحكا فى مجال حديثه .
كلنا كنا ندرك تماما أنه يعنيها ..
ويخاف هذا ..
لكنى لا أخافه . وإذا كنتم تخالون أننى كنت بعيدا أو أننى لا أدرك ما حدث ويحدث فسأديرها لكم محاكمة ..
محاكمة ؟؟!
أنت تحاكمنا ؟
بل الجوابرة يحاكمونكم .
من هم الجوابرة ؟
ماذا يساوون فى حسابات القوة ؟
ولا حتى الضعف .
هذا ما تخالونه . لكن عنصر الرجال سيغلب .فلتكن الليلة محاكمة صغرى .
صغرى ؟
فقد تجئ المحاكمة الكبرى .

****

الاتفاق كان أن يهدم سجن المماليك . أن تحرر رقاب الجوابرة من ذل الماضى وظلمه ..
وكانت تعليماته أن اجعلوا كل فرد فى ميت جابر يشعر تماما بأن لقمة عيشه أناولها له بيدى وقت أشاء وأمنعها وقت أشاء .
أعوذ بالله ..
كانت تجربته مع الحقانية مريرة ..
ما أساءوا إليه ؟
بل جرحوه .
كشفوا أوراقه ..
كانوا أيضا أقوياء ..

قوتهم لم تكن ملك يديه .
أراد أن يأمن بجانب الجميع .
أنشأنا الجمعية ..
استولينا على الأرض تحت شعار الملكية للشعب ..
من يستأجر فمن الجمعية .
ومن زرع فلا مشترى إلا الجمعية .
ولا بائع أيضا إلا هى ..
ومن لا يزرع الأرض ، فهو يعمل باليومية ، ولا عمل إلا من خلال الجمعية .
كلمة واحدة ..
همسة بأن من يعمل لا يردد الشكر ليل نهار للعمدة .
ترفته ..
نشرده ..
نجعله يتضور جوعا ..
فلا مكان آخر يستطيع أن يعمل به ..
بل قد يصل العقاب إلى الأقارب من الدرجة العاشرة .

****

هل وردت قطنك يا منتفع .
نعم . بكامله يا حضرة الباشكاتب ..
إذن نسوى لك الحساب ..
الله يكرمك يا بك ..
هات عشرة قروش حتى يستوى الحساب ..
هذه هي .. هل لى فائض كثير يا سيدى ؟
جدا . فبالقروش العشرة سددت ديونك بالكاد .
وشقائى طوال السنة . عملى . كدى .وكد أولادى ؟
لا شأن لى ..
لا شأن لك . شأن من إذن ؟
هل تتحدث فى السياسة . لا تعجبك القوانين . تريد أن تعدل فى كتاب الأحكام . تريد أن تلحق بابن عمك . أنسيت ؟
أنا يا سيدى أتحدث فى السياسة .أنا جاهل يا سيدى . عبد مأمور . أقبل قدميك أعف عن كثرة تساؤلى فهو الجهل يا سيدى . فهل تعتقد أننا رأينا أكثر من أيامكم هذه عدالة ؟
امشى إذن من أمامى ..
أطال الله عمرك وعمر العمدة .
****

أذكر أن فلاحا جاء به الخفر بعد ما وجدوه يتلكأ أمام دوار العمدة وهو يصرخ ويولول. قرروا أن يعرضوه على لطرافة منظره . وقف أمامى يرتعد :يا سيدى لقد ضربت ضربا مبرحا . أنتم يا سيدى قلتم بسقوط الظلم والظلمة . جئت أطلب الإنصاف فضربت .
ما حكايتك يا رجل : العدل يا سعادة البيك . رئيس الجمعية يريدنى أن أطلق أم عيالى ليتزوجها .
سألته : وما فى هذا . ارتعد بصورة مضحكة للغاية . انتفش شنبه الضخم حتى كادت شعيراته تتطاير فى كل مكان وأنا أردف : الا يريد أن يتزوجها على سنة الله ورسوله . كان منظره مضحكا للغاية حتى لقد عزمت على أن ألحقه مضحكا لى ولكنه فاجأنى بثورة غريبة فلقد هجم على يصرخ فى وجهى : انتم ظلمة . ظلمة . فجنى على نفسه وخدم من حيث لايدرى رئيس الجمعية : فلقد أصبحت زوجته أرملــة.

وعرف العمدة ؟ ..
ومن يستطيع أن يقول ان العمدة لا يعرف ؟

سمعت أن مدرسا تحدث إلى تلاميذه عن مظالم اليوم .
مظالم اليوم يا عمدتنا ؟
حاشا لله .
أيامك أيام عدل .
الجوابرة يحمدون لك .
ولكن تفلت منكم بقايا من أنصار العمدة القديم .
محال يا عمدتنا .
وأين رجالنا إذن ؟
ليل نهار يعملون .
يتجسسون ..
يتحسسون ..
لاتفوتهم لفتة ..
أو تخفى عليهم همسة ..
حتى الدور جعلنا لنا رقباء داخلها .
فنستطيع أن نقول لك متى يأتى الرجل إمرأته .
..اذن هو جيل نخره السوس..
هو ذاك يا عمدتنا ..
حتى يسهل لك أن تسوس .
..إذن لابد من أن نهتم بتدعيم حكمى ..
أأمر يا عمدة ..
عمدة القرية القديم ذلك الذى سافر بعيدا عن ميت جابر يقتل .
بسيطة ..
نرسل من يدس له السم فى الطعام ..
التعليم بالكتاب به هنات وهنات ..
هو متوارث من الجدود ..
نظام عتيق ..
التلاميذ مازالوا يتعلمون : نحن أبناء ميت جابر . برضا الله نعيش..
ينشدون كل صباح : نموت وتحيا ميت جابر .
أغان عتيقة .
كلمات فجة ..
مجوفة ..
وكأن ما حدث جديد ..
ولا ظهر عمدة علمهم ..
إذن يجب أن نعلمهم ..
أن نصحح لهم ..
أن ننشئ الجيل الجديد ..
فلتكن نظم جديدة .
ليكتب الصغار الجملة الأولى : نحن أبناء العمدة .برضا العمدة نحيا .
.. وليكن النشيد لك كل صباح ..
دمت يا عمدة ميت جابر .. دمت يا واهب الأرزاق .

****

ـ ٢ ـ

.. والشغل الشاغل حالهم ، فما عدت
تسمع باك على ميت جابر

ونجحنا تماما

ابن من أنت يا فتى ؟؟
إبن العمدة ..
ما اسم بلدك .؟
العمودية .
ما اسم مدرستك ؟
مدرسة العمدة
ما اسم شارعكم ؟
شارع العمدة .
ما اسم المصنع الذى بآخر شارعكم ؟
مصنع العمدة للأدوات الكهربائية .
هل فى قريتكم كهرباء ؟
لا يهم العمدة يريد أن ينشئ المصانع ويجعل قريتنا كالمدينة .
وهل يعمل أبوك بالمصنع ؟
بل يعمل بمزرعة الجمعية .
ماذا كنت تكتب على الحائط ؟
اكتب عاش العمدة . فلو كتبتها ألف مرة جعلنى العمدة مهندسا فى مصنع الأدوات الكهربائية .
من علمك هذا .
كثيرون .
مثل ؟
كتاب القراءة . المذياع . مدرس الفصل . نشيد المدرسة .الفراخ بدارنا .
الفراخ ؟ !
أمى تقول أنها عندما تريد أن تبيض تنادى العمدة كى يباركها .
أتدعو له ؟..
هو يعطينا البيض ويعلمنا ويطعمنا ويكسينا .
وأبوك وأمك ؟.
هو يعطى أبى أيضا ويعطى أمى وأخوتى.
وميت جابر ؟
لم أسمع بمثل هذا الاسم من قبل .
****

هرب الرجال من الحقول .
غصت القرى المجاورة بالجوابرة .
لكثرتهم يسمونهم الجراد .

ما بقى فى " ميت جابر" غير اليائسون او المتقاعسون .
وما زاد البلاد بلاء .
أن أوصل العمدة الترعة بالمصرف .
فصارت المياه آسنة لا تحمل غير الآفات والموات للزرع .

****

شيخ الخفر الجديد صار لا يعترف إلا برجاله ، يعدون له القعدات ، وهو يغدق عليهم ويفيض حتى اصبح النظار والمدرسون والمهندسون والرؤساء فى كل مكان من الخفر ومريدى شيخهم فلقد كان يملك برجاله السلاح. وله على العمدة دلال ، فالعمدة يعجبه المديح ومعسول الكلام .

وهل هناك من يتقن مثل هذه الأمور مثل من هو من قدماء الغاب ؟

****

جارى آ أخلى داره ليلة أمس ..

لابد وأن ساكنها الجديد خفير..

هو ذاك ..

إذن فقد أخلى منها

****

ابنى انتهى من دراسته ..
مبروك عليه وعليك ..
قل عوض الله عليه وعلى . فقد حصل على أعلى الدرجات وهو لا يتقن كتابة رسالة.
****
هل لك قريب صديق لخفير ..
لو صح ما كان هذا حالى ..
خاب ظنى . كانت هنالك فرصة لا تتاح الا عن هذا الطريق .
****
وهكذا شغل الناس.
أصبح همسهم كطنين النحل .
والشغل الشاغل حالهم .
فما عدت تسمع باك على " ميت جابر "
ونجحت خططنا تماما .
****
أنما لا تكفينى امرأة واحدة .
قلنا لك يا عمدتنا من قبل أأمر . كل نساء الدنيا طوع بنانك ..
لكن زوجتك قد تغضب يا عمدة .
هى خاضعة لك..

طوع بنانك ..
اكره هذا الضعف من النساء . أريدها امرأة جميلة . متمردة . لا باردة مستسلمة .
طلبك موجود ..
ونحن نلاحظها منذ زمان ..
تتابعك أينما ذهبت ..
تكن لك كل الحب .
منبهرة بشخصك ..
وقد تعمدنا أن نحيطها بكل أخبارك .
بعد أن نزوقها ..
.. ونزوقها ..
حتى صرت الفارس المرتقب ..
ولكن من هى . من أى البلاد ؟
هى من نشوة ..
ونساء نشوة جميلات .
أيضا متنمرات .
ليكن زواجى منها حدثا فريدا .
أمرك يا عمدتنا .
ولكن ألا تراها ؟
ألا تذهب لنشوة فتزور أهلها ؟
سأذهب وسترغبنى وسأعود بها زوجة لى .

****

ما حزنت زوجة العمدة القديمة .
هى زوجة مطيعة طيبة .
تؤمن تماما أن الزوجة القديمة لها المكان .
وأن زوجته الثانية قد تقف معها .
لن تجعلها ضرة لها .
كفاها ما لاقته من عنت العمدة .
هى تزوجته رغم أنفها . فرض عليها .
وقد سمعت الكثير عن بنات نشوة .
جمال ودلال وإرادة من حديد .
حتى أن المرأة منهن تملك زمام أمرها .
ولا يملك الزمام رجلها .
فلها أن تهجره ، وقت تشاء .
وقد آن الأوان لآن يمرغ انفك المتورم فى التراب .
هكذا قالت زوجته القديمة الصابرة
ويفجر بنيانك الأجوف فقاقيع يذروها الهواء .
بذاك أردفت وأضافت .
هو حديث ذاتها لذاتها .
وأن صمتت .
تلت نبأ اعتزام العمدة الزواج فما تكلمت .
وان برقت العينان بالأمل .

وسافر العمدة . شد الحال وانطلق إلى نشوة .
وجدها تقف فى مقدمة الآلاف من البشر فاردة ذراعيها بترحاب .
فلما تلقفت يديه أدارته تجاه الجموع وقالت والفرحة ألق فى العينين :
هؤلاء أهلى وعشيرتى .
نظر .
هالة ما رأى .
فى ميت جابر – على قدر ما رأى – لم ير مثل ما يرى .
هو هنا وسط حماس طاغ . جنون . هوس به .
انقلب الحماس إليه .
وعد بإسعادها .
بأن تكون فى العيون مصانة .
وعاد بها .

****

ألا ترى يا عتريس أنك تسرعت فى زواجك منى .
عتريس ، ما اعتدت أن ينادينى أحد هكذا ؟
هو اسمك .
لكنى نسيته .
هى أيضا عاداتنا .
زوجتى الأولى تنادينى العمدة.
أنا لست هى .
المشايخ ينادوننى العمدة .
هم أهل زوجتك الأولى .
الدنيا كلها تنادينى العمدة .
ولكنى لست الدنيا أنا نشوى .
لكنى أريدك أن تنادينى هكذا مثلهم .
وأنا أريد .
لكنى أريد وما أريده يكون .
ألم أقل لك أنك تعجلت هذه الزيجة .
لذا سأتزوج غيرك .
وستتعب أكثر .
هذا رأيك لا يعنينى .
لكنه رأيى . وأقوله .
وفريه لنفسك .
لم أعتد أن أخاطب الآخرين من خلال صمتى .
هكذا كانت زوجتى فى سنى زواجنا الأولى .
ولكنى لست زوجتك تلك .
وأخضعتها .
وأنا لا أخضع .
..أخرست لسانها .

ولسانى لا يخرس .
..قطعته .
وما يجرؤ على قطعة أقطع رقبته .
ما سبب كل هذا الاندفاع والتهجم ؟
طمع وتسرع منك .
وأدت نشوة اللقاء وهى بعد ليلتنا الأولى .
خير أن توأد من أن تعيش وهم خيالاتك .
خيالات بعد كل ما رأيت . بعد كل ما شاهدت .
بل واقع لو أردت .
كيف ؟
تحترم آدميتى .
ولكنى رجلك أقوم عليك .
ومطلبى إنسانى وحتمى لكى أكون لك .
وان لم أفعل ؟
لن تنل منى شيئا .
سأرغمك .
أهلى لن يدعوك تفعل .

****

ما قال لنا العمدة ..
كنا ننصت من خلال الكوة .
من خلف الأبواب .
كان لابد وأن نحاط.
وأن ضبط أحدنا .
نصرخ هي مصلحتك يا عمدتنا .
حياتك أمانة فى أعناقنا .
أنت أغلى من أن تعرض للخطر .
ونحن ذاتك لا نبوح لك بسر .

****

زوجتى القديمة ملاك بالقياس لهذه .
لكن لا تنس كل الحب .
ذاك الحماس فى الحب .
ثم هى رغبتك .
ولكن بهذا الأسلوب .
عليك أن تسايرها يا عمدتنا .
هكذا النساء فى البدء حتى تملكهن .
لقد ... ماذا أقول ... لاشىء .. أنا من أراد .

****

نسافر يا عتريس.
نشوى .
نسافر لعلك تجد نفسك فى ديارنا .
ولكن .
سنسافر غدا .

****

حمد الله على السلامة يا عمدة .
سلمتم يا رجال . هل أعددتم ما طلبت ؟
الجمال محملة بالمحاصيل وهى تأخذ طريقها الآن الى أهل نشوة .
والأموال .
سافر وفد من المشايخ لتوزيعها فى العيد .
هل نصرف لام العيال أيضا .
هى مناسبة تحتاج منك للفتة .
كفاها ما صرفت .
لكنها صاحبة الخير .
تريد أن تقول : الخير أيضا قعيد يديها . لا فائدة . ولاؤكم لها أكثر منى .
حاشاك يا عمدة .
لو أردت أن تقضى عليها لفعلنا .
لقد حطمنا عنادها .
وأكثرنا أغلالها .
ولولا هذا ما استكانت .
لو رأيتم كيف كانت عظمة استقبال أهلها ، انه لشىء يفوق كل خيال .

****

العمدة بدا لا يفيق.
هو أسير لحظات نشوى .
وانتقل الخبر لنشوة .
كل من يريد أن يحيا فى بحبوحة عليه بالسفر لنشوة .
حتى أن شيخ الخفر بعث بكل خفرة إلى هناك .
ما عادت بميت جابر حراسة ليلية .
غير الزهاد والنساك .
كل هناك يسعد بليال الكرم .
وفروق المرتبات .

****

هل تأذن لى يا عمدتنا .
إلى أين يا شيخ الخفر؟
إلى نشوة .. جولة للاطمئنان على أحوال العيال هناك .
تدلل خفرك جدا يا شيخ الخفر .

هم رجالك يا عمدتنا جاهزون لساعة النزال .
اذن سافر ولا تنسى .
هل تريد حقا يا عمدتنا ؟
نعم .. يجب أن اطمئن تماما لما يحدث هناك اطمئنانى على ما حدث هنا .
أمرك يا عمدتنا . وسيكون الجهاز أكثر دقة حتى ليأتيك بدبيب النملة .
سأسافر يا عتريس .
تسافرين ؟
ولن أعود لك .
لا تعودين .
أمرت بأن يعد كل شيء.
لا يأمر أحد هنا غيرى .
أنا أمرت .
أنت امرأتى .
لست امرأتك .
لست ..
حذرتك من أن تحاول امتهانى .
.....
قلت لك أننى لست زوجتك الأولى ..
......
مثلما اختفى بك .مثلما طرد
شيخ خفرك وعياله .
طردوا ؟
وضربوا ..
رجالى تضرب ؟
وتطرد ..وتهان .
....
لست أنا مثل زوجتك الأولى . هى قد تتحملك لأنك من صلبها . هى قد تتحملك لأنك غافلتها . هى تتحملك لأنها لم تعرف غدر الجبل وقسوة الصخر ؟ بل ابنة السهل المنبسط الذى تزرعه الأمطار وأن لم تكن فالنهر أبدا لا يفيض .
سأخرس صوتك .
لن تستطيع فلقد وقع المحظور .
تعالى . لا تتركنى . إلى أين يا نشوى ؟
تسأل بعدما بالفعل ذهبت . ورقة انفصالنا على الفراش يا عتريس .
****
الطاغوت محموم يهذى .
كان يحبها .
جن بها .
لكنها ركلته .
بل هى مؤامرة .
لعبة لعبها العمد الآخرون .
عليه ألا يسكت .
فلقد حرضوها .
بعد ما أكلت الغيرة قلوبهم .

ماذا تقولون يا رجال ؟
لاشىء يا عمدتنا ..
سمعت كل ما قيل ، وهو بالقطع ما حدث . محال هى أن تكرهنى . محال أن يضمر لى هؤلاء الذين فرشوا حياتى بالأمل والكبرياء محال أن يمرغونى فى وحل الكراهية والعار . هم حرضوا ضدى ممن يكرهوننى ويحقدون على لنجاحى . فأنا خير العمد فى كل البلاد .
وبم تأمر يا عمدتنا ؟
سأحاربهم فى كل مكان . من اليوم كل جيرانى العمد أعداء . سأنتف ذقونهم واسقيهم العذاب . سأجعل اللعنة تطاردهم . مثلما طردت عمدة ميت جابر . القديم سأطردهم . مثلما رميت بالعجوز فى بطن الجب سأرمى بهم .

****

احمل طبلك وجر على الأبواب .
أيها المداح اقبض أموال اليتامى والمحرومين وانثرها مع سم اللسان .
يا صاحب اللسان البذىء انفث قاذوراتك على ثياب الشرفاء .
ودس بحقدك الأسود كل قيمة .
انثر صديد بثور فشل سيدك .
فيبتعدون عن رذاذك .
ويكرهونك ويكرهونه .
تنتشر سحب البغضاء .
تحجب غيومك السود من تحمل قلوبهم الصفاء .
فما عاد سيدك يدرك .
اعمى فما عاد يرى .
مقبض السيف من نصله .
الطاغوت لا يرى غير فشله .

****

- ٣ -

سال دمنا على الجانبين والقاتل يبكى قتيله ..
والقتيل يطلب لقاتله المغفرة والرحمة ..

..وضاع الرجال

يا شيخ الخفر . يا أخى ..
أأمر يا عمدة. خيرك على . فلك دين فى عنقى بعد ما اصطفيتنى من دون المشايخ جميعا .
أنت أخ وصديق قديم . فيك وضعت كل ثقتى .
لك أن تأمر وعلى أن أطيع .
أرسل أحد أبناء أم صقيف إلى أرض البركة ومعه الأموال . ثم الحق به وأغر رعاة الغنم أن اغدروا بشيخ القبيلة . وعضدهم بخفر مسلحين .
وإذا حاربنا شيخ القبيلة ؟
حاربوهم .
نحاربهم ونجزل للخفر العطاء .
خزائن ميت جابر مفتوحة لك .
إذن سيخوض الخفر البحر وراءك .
ولهذا اخترتك ولمثل هذا اليوم إدخرتك .
وإذا ما ارتفع صوت بالاحتجاج .
سنقول هم من بدأوا بالعدوان فاستنفرنا فلبينا .
أمرك يا عمدة .

****

سمعت .
ماذا؟
أخى ؟
فاض لسانه فى إحدى جلساته وقد دار رأسه فقال إنه مسافر إلى أرض البركة .
ومافى هذا يا شيخ البلد .؟
فيه جنون يا عمده . الشفامية سيجدونها فرصة ليرسلوا برجالهم المسلحين .
عندى من الخفر الكثير .
بل أعرف أنهم قلة وسلاحهم عتيق .
حجرة السلاح ممتلئة.
هى أسلحة من خشب للتمويه .
سأحارب شيخ القبيلة . سأنتف ذقنه .
هو الحقد أعماك .

هو من حرض نشوة وجعلها تتمرد .
بل نشوة ضجت من مظالم رجالك .
هى أوامرى أصدرها فتطاع .
لكن لن أطيع .
لا تملك هذا .
سأملكه بابتعادى. وأملكه بقلبى . ولكنى أقولها لك. بسببك ميت جابر ستضيع .

****
حرضنا الرعاة .
أعطيناهم السلاح والمال .
لم يحاربوا .
لبسنا لباسهم .
صعدنا الجبل .
حاربنا بإسمهم .
لكن طبيعة الجبال قاسية .
ونحن أبناء السهل المنبسط .
أيضا رجال القبيلة يقاتلون أشداء .
طاردونا .
سقط منا الكثير يا شيخ الخفر .
ليسقطوا فالثمن مرفوع .
هى حرب لا تنتهى .
لتستمر عشرات السنين .
لن نستطيع أن نحقق نصرا .
اخرس. لقد أمرتكم بالانتصار . بتقليم أظافر ذلك الشيخ وهى إرادة العمدة ولابد وأن تتحقق.
الناس لا تجد الطعام يا عمدتنا.
ليشدوا الأحزمة على البطون .
كل ما تنتجه أرض ميت جابر يذهب للرجال هناك .
تحمله الخيول والبغال والحمير عبر السهول والجبال ..
يقع فى كمائن رجال شيخ القبيلة .
يطعم منه رجاله ليستبسلوا ..
ليستبسلوا ..
ويقاتلوا ..
ويقتلوا من نرسل لهم الطعام .
اعدموا كل من يفعل هذا ..
لن يذهب أحد .
هى أوامرى.من لا يذهب يعدم .
يتساءل الرجال من أجل ماذا يموتون ؟
من أجلى أنا . أما يكفيهم هذا شرفا .
من أجلك تهون الصعاب يا عمدة.
****

ما كل هذه القوائم يا أخى .
هى أسماء من تساقطوا على حدود أرض البركة .

والباقون ؟
محاصرون . يعانون من أزمات القلب فوق قسم الجبال .
تساقط عليهم الثلج وما اعتادوه .
سقطوا فى كمين أرض يجهلونها .
والسلاح . والأموال التى انفقت عليهم يا شيخ الخفراء ؟
فداك ياعمدة.
والحل.؟
إذا استمرا انتهوا .
ارسل غيرهم .
كل من جاء دوره أرسلته الى هناك .
أينتصر على ذلك الشيخ . اتنصرونه على يا شيخ الخفراء ؟
فداك يا عمدة .
وكيف الفداء وقد حوصرت بالموت من أمامى والعار والهزيمة من ورائى .
ارسل الى شيخ القبيلة ترجوه أن يعفو عما سلف ولتتصافحا .
أنا ؟
من أجل الذين يتساقطون .
بذلت الكثير من أجلهم فليس بالكثير عليهم أي يسقطوا من أجلى ..
هم رجالك ..
كانوا لاشئ صنعت منهم كل شئ .
بقاياهم عدتك ياعمدة والا اكتشف الشفامية أننا بلا رجال ..
اكتب أنت للشيخ . أكرم أن يموت كل من هناك من أن أطأطأ الرأس .

****

يا أيها الشيخ العظيم .. يا حارس الأرض المباركة .
نحن أيضا من أبناء الأرض المباركة .
لكن يحكمنا طاغوت .
قدمنا قربانا من أجل فكرة المجنون .
حملنا السلاح وأطلقناه على أعز الأخوة .
سال دمنا على الجانبين والقاتل يبكى قتيله ..
والقتيل يطلب لقاتله المغفرة والرحمة .
يا أيها الشيخ العظيم .
كل ما نطلبه أن نعود .
أن يسمح لنا بأن نركب سراديب الجبال ونعود .

****

يا أيها الأبناء المساكين .
يا من يحكمكم بالظلم مجنون .
من أجل هذا الذى قلتم .
من أجل الكتاب الذى يجمعنا .
من أجل أرامل أخوة لكم ولنا .
وإيمان راسخ بأنه ليس ذنبكم .

عودوا إلى دياركم .
كونوا شجعانا فى مواجهة ذلك الذى يجثم فوق الصدور .
اطرحوه عنكم .
أن لم تقدروا .
تذكروا .
أن هناك قادرا .
قد يكون نساه وأغفل.
لكنه سبحانه لا يغفل .
****
هذا هو نداؤهم إليه .
وهذا رده عليهم .
التقطه رجالنا .
اذن يقبض على كل من يعود.
لم يعد فى سجون المماليك مكان .
هناك عشرات السجون غيره .
شيخ الخفر توعد لو مس أحد من رجاله .
ماذا ؟؟
هو تعمد أن يسمعنا تحذيره .
وانتم ؟
هم أطوع له من بنانه .
أرسلوا من يقتله .
حرسه يسدون المنافذ لداره .
إذن دعوهم يعودون ولهم وله يوم آت عن قريب.

****

جهز رجالك يا أخى .
امرك يا عمدة .
لو طلبت أن تهزموا الشغامبة تهزموهم .؟
أأمر يا عمدة ..
إذن اصدر آمرك بالاستعداد يا أخى .
أمرك يا عمدة .

****

تمام يا عمدة الخفر فى كامل استعدادهم متى ننقض على الشفامية .
هى ليست معركة كما توقعت يا أخى .
ليست معركة ؟
حركة مسرحية ؟
مسرحية ؟
تعرف يا أخى أننا انسحبنا من أرض البركة .
اعرف .
كان هذا شيا مهينا . أريد أن أفهم الجميع أننا مازلنا أقويا ء

لكننا سنكون فى مدى أيدى الشغامبة. وإذا أردنا أن نعطيهم علقة فلابد أن نبدأ نحن بالضرب .
لن يحدث ضرب يا أخى .
يا عمدة إذا ضربونا أولا سنهلك .
لن يضربوا .
يا عمدة ..
لقد حسبت حساب كل شئ يا .. أخى .

****
استرخوا يا رجال فما من حرب ستخوضون .
....
....
****

ماذا يا شخ الخفر ؟
حساباتك الخاطئة يا عمدة ..
ماذا ..
حساباتك التى أضاعت الرجال . أما أوصلت إليك آذانك أن الشغامبة قد ضربوا رجالنا وحرثوا زرعنا . وهدموا الكثير من ديارنا .
ورجالك يا شيخ الخفر ..؟
رجالى بتعليماتك رموا السلاح. وهى حركة مسرحية يا شيخ الخفر . لا حرب.
سآمر بالحرب .
تأمر بالحرب !!
أأمر بالحرب .
ومن سيحارب ؟
الخفر .رجالك .
لقد انتهى الرجال ياعمدة .فقد فعلتها ونجحت .
فعلتها ؟
أوقن أنك كنت تدبر لما حدث .
ما معنى كلامك هذا ؟
أطالب بأن نحاكم معا أمام الجوابرة ..
نحاكم معا .؟
نهم لنعرف من تسبب فى كسر شوكة الرجال .
أنت تخرف يا شيخ الخفر .
كنت فعلا قبل هذا أخرف . أما الآن فأنا فى كامل وعيى .
ليس الآن وقت الخلاف .
أردت أن تنتهى منى بهزيمة رجالى حتى لو كان الثمن هو ضياع ميت جابر .
كفاك لغوا .
بل هى حقائق تستحق أن تقتل من أجلها .
أقتل من أجلها . أمجنون أنت .؟
****
تكاثرنا على شيخ الخفر .
حولنا مسدسه عن صدر العمدة .
انطلقت رصاصات طائشة .

كنت معنا يا شيخ صابر .
هو ذاك . ولكن أين هى الحقيقة .؟
الحقيقة فيما سمعت .
وفيما قلنا .
لكن من قتل شيخ الخفر .
هو من قتل نفسه.
انتحر .
بل نحرتموه .
هو من أمر
يقتل أعزنا اليه. من كان يناديه يا أخى ..؟
كانت ضرورة ..
فلابد لأحدهما أن يموت .
والا كشف الحجاب .
وشاعت وسط العراك الأسرار.
وما تعرف شئ عظيم .
لكن ماكان يعرفه شيخ الخفراء كان أعظم .
****
بعدها تباعد العمدة عنا .
قال سأفتح المعتقلات .
أصدر الأوامر.
لم ننفذها .
كنا عقلاء .
زاد عليه المرض .
لأنه عاد ينقضها ..
تعرف طبعا أنه كان يعانى من الجنون .
نوبات تأخذه .
تهلكه .
وزاد علينا العبء
أصبحنا من يحكم .
ونوهمه بأنه من يحكم .
يا مشايخ ميت جابر كل هذا معروف . اريد ما هو غير معروف .
فماذا تريد أن تعرف ؟
أريد ردا للسؤال .
السؤال ؟
هل سألت ؟
لقد نسينا .
أريد أن أعرف هل مات العمدة أم لا ؟
تعنى الطاغوت .؟
هل مات أم لا ؟

****

****

**

الصباح

الليل جاثم فوق ميت جابر.
ليل خامل ثقيل
لا قمر .
لقط يطل الهلال .
وسط الظلمة يحوم المجنون .
يلف .
يدور.
يطرق باب الدوار .
يدق بيديه خشب الباب.
ما من أحد يرد .
يصرخ.
يسب .
فما من صوت أجاب .
يمد اليدين .
يحطم الرتاج .
يلج العتبة داخلا .
يبتلعه الظلام .
ينعق غراب البين .
****

أسمعت يا أم العيال .
طلقات بنادق .
فرفعة سياط .
بل هي يا أبواى دقات .
سمعت فى الفجر دقات .
ومع انبلاجة الصبح أضحت ضحكات.
هو المجنون .
العيال تلصصوا .
اقتربوا من الدوار.
وجدوا المجنون يروح ويجئ .
هى عادته .
يطوف بين الدور
لكنه هذه المرة يطوف داخل الدوار .
داخل الدوار ؟
أيكون الطاغوت قد اصطفاه ؟
هو لاينسى .
ول ايسطفى الا مطأطئ الرءوس .
إذا كره لا يجب .

اذن لابد وأن هناك سرا .
اكتشاف سنعرفه من المجنون .
يا جوابرة لنا الله.
مرة أخرى سيجركم المجنون الى المصيدة .
ونروح ننوح .
هداكم الله .
اغلقن الأفواه ياجوابريات .
لنا ليال أربع .
يأكلنا القلق .
تلتهمنا اللهفة .
فلا جواب للسؤال.
هل مات الطاغوت أم لا ؟
****
نوحت الأبواب .
استعصت ثم فتحت .
طرحت الأجساد عنها النوم .
ومرارة الأحلام .
مش الرجال فى المقدمة .
الخطو متسق حثيث .
خلفهم زحفت النسوة .
العيال فوق الأكتاف .
لمبات الجاز على الرؤوس .
فما زالت هناك بقية من ظلام.
****
عمرك يا ميت جابر ما مشيت فى طريق واحد .
فى الفجر حدثت المعجزة .
وسار الرجال ملتصقين .
النسوة أيضا كففن عن فارغ الكلام .
الكل خطوة واحدة .
يبهرهم عالم الأسرار .
والهدف ثانية .
والهدف الدوار.

****
اللعبة طالت.
لنا ساعة ونحن وقوف .
المجنون استمرأ لعبة دخول الدوار والخروج .
الشمس أزاحت ستر الندى .
والمجنون لا يفصح .
لا يبين .

****
الشمس نار تلتهب .

الحقول مهجورة .
الأبقار تشرئب من الزرائب .
الجاموس ما انحلب .
الجميع يجترون مرارة الانتظار .
الكل صابر .

****

دخل المجنون .
غاب ما خرج .
له بالداخل لحظات ولحظات .
ما اعتاد أن يغيب .
لعله تعب .
احتجب .
هاهو من داخل الدوار آت .
ظهره لنا .
يسير بظهره يتثاقل بالغ .
لعبة جديدة يمارسها .
أو أمر جديد يحمله لنا .
مهما كان .
ومهما يكون .
لن نغادر المكان .
الموت أهون من أن نعود .
ولا نعرف جواب السؤال .
هل مات الطاغوت .أم لا ؟

****

المجنون بظهره يتقدم .
يتراجع . يقترب .
الخطو بطئ.
تستعجله العيون .
الأرواح فداء .
فقط لو يبين .
****
عن بعد تقبل صبية .
الرأس مرفوع .
وان ظل الوجه حزينا .
ما من أحد ينتبه إليها .
هى محور كل ما يدور .
ولا مكان لها .
لا مكان لها .
المجنون جذب جثة .

جثمان ضخم متعفن .
هو ذات الجثمان الذى رأيناه .
بديل الطاغوت .
إذن فالطاغوت قد مات ؟
بل هو .
إذن فالطاغوت قد مات ؟
لأن الطاغوت مخلوق.فلابد وأن يموت .
يموت ؟
محال أن يموت .
يموت .؟
لا يموت .
مات ؟
نموت .
الطاغوت مات ؟
لا يموت .
يموت .؟
يموت .
نموت .

****

الجوابرة ينوحون .
الدمع سيول .
يا جوابرة :
انتم لا تلامون .
لا تلامون .
لا تلامون .
****
هو من كان يطعمنا .
هو من كان يسقينا .
هو من كان يضحكنا .
ويبكينا .
هو من كان يأوينا .
هو بلدنا .
هو مهدنا .
هو أبو عيالنا .
هو الطاغوت كل شئ .
وقد مات .
فليس أمامنا إلا أن نموت .
نموت .. القاهرة فى

****
****
****